أقاصيص من السويد

مجموعة قصصية

سعيد سالم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥م

تصميم الغلاف والإشراف الفنى :

صبرى عبدالواحد

الفهرست

* نشرت قصص هذه المجموعة بملحق جريدة الأهرام ومجلة حواء خلال الأعوام ٩٦م ـ ٢٠٠٢م.

الجزء الأول

السويد عام ١٩٨٠م

«الاختلاف»

أركب الطائرة وأنظر من السـمـاوات إلى الأرض.
الإحساس بالارتفاع والعلو متعة لذيذة أجربها للمرة الأولى فى حياتى.. اللذة يصحبها هبوط مخيف فى القلب لا ينسى، وطفل ينتزع من حضن أمه بقسوة جبارة، فتشبثى الوهمى بالأرض حقيقة تؤكد أننى لست أعرف كيف ستكون حالى فى السماء.. سابح فى بياض كالثلج.. كون لا نهاية لاتساعه ولا حد لقدرة خالقه ذى الجلال.. بلاد ظللت عمرى أتلهف على أخبارها فى الجرائد والإذاعات وأتتبع سير حكامها بمزيج من الانبهار والحسد، فما أثقل المقارنة على القلب.. أراها الآن من فوقٍ كخطوط ومربعات

ومساحات معظمها خضراء.. كم مللتك يا صحراء مصر، أما الإنسان فلا محل لرؤيته على هذا الارتفاع الكبير، وكأن وجوده مرهون بقدرتى المستحيلة على رؤيته وهو يزرع ويحصد ويحارب ويحب ويظلم ويعدل ويصحو وينام.

فى ذلك الفراغ الكونى الهائل تبددت أهمية أمورى الحياتية حين بدأت المضيفة تشرح للركاب استخدام طوق النجاة.. أى نجاة تلك أيتها الحسناء لو شاء القدر لعلبتك المعدنية - الطائرة - أن تسقط لخلل طارئ؟!.. وأين هذا الكائن الخرافى الجبار الذى سيمكنه وعيه وتسعفه أعصابه حينئذ على اتباع تعليماتك الساذجة بشد تلك السترة وفتح ذلك الزر وعقد ذلك الرباط والنفخ فى هذا الشىء؟!..

لا أكاد أصدق أننى جالس الآن بشحمى ولحمى فى حجرة جميلة بفندق ساس رويال بكوبنهاجن، وقد اجتزت اختبارات عديدة جميعها للمرة الأولى: إجراءات المطار وواجهة أول شارع أوروبى تراه عيناى منذ ولدت رؤية عين اليقين، والاصطدام بدرجة مئوية تحت الصفر لم أسمع

عنها من قبل فى دنيا الواقع.. كان رعبى منها أشد وطأة على أذنى من الإحساس ببرودتها الحقيقية منذ أشار إليها قائد الطائرة وحتى لحظة خروجى من باب المطار.

يا إلهى.. إن هى إلا قطرة ضئيلة من محيط ملكك العظيم.. تبدو لعينى المنبهرتين بشوارع لامعة وسماء ممطرة ووجوه بيضاء ومبان رائعة الشكل والتنسيق.. أما الورود التى تزين الشرفات فما أجملها، وما أبعد الفارق الشعورى بين كون الإنسان أفريقيا وكونه أوروبيا..!!

ها هى خطواتى الأولى أدوسها على أرض الحضارة المنتصرة فى هذا الزمان.. أتصور أن اتفاقى مع هؤلاء القوم فى كونى إنسان مثلهم لا يمكن أن يلغى اختلافات لا حصر لها بين تكوينى النفسانى والخلقى والأخلاقى وبين تكويناتهم المناظرة، فضلا عن إحساسى الذى لا مفر منه بالتخلف عنهم فى مجال العلم والتكنولوجيا الذى اكتسحوا به العالم فى سنوات معدودة، أما حضارتى ذات السبعة آلاف عام، فعليها وعلى نبينا السلام.

أنظر إلى المارة فى توجس. هل هم أناس طيبون مثلنا فى مسألة الترحيب بالضيف وإكرامه، أم إنهم يقيسون العاطفة بالمقاييس الطولية والوزنية؟!.. هذا الرجل يتجاوزنى بنظره فى عفوية وكأننى لست كائنا أرضيا يمشى بجواره. لعله يحتقرنى ولكن لماذا؟.. لعله لم يرنى، أو أنه شارد فى مشكلة خاصة.. ولم لا يكون قد رآنى ومشى إلى حال سبيله دون أن ينشغل بأمرى، كما أتوقع وأتصور وأريد بلا مبرر لذلك؟!

لا شك أننى وقومى نفكر بطريقة ملتوية شديدة التعقيد كثيرة الانحناءات والالتفافات قبل أن نصل إلى جوهر الفكرة الذى نهدف إليه، والأمر على أية حال بحاجة إلى الاحتكاك الفورى من خلال تجربة عملية عاجلة.. والآن!

- من فضلك أين السنتروم؟

سيدة تقترب من الأربعين، تسير فى نشاط عسكرى حاملة حقيبة مليئة بالفواكه والخضراوات، ابتسمت لى فى رقة رائعة، توقفت خصيصا لتصف لى المكان وتشير إليه

بإخلاص زائد، ثم ودعتنى بابتسامة أكثر رقة، وحالاً ما عادت معالم وجهها إلى صرامتها الأولى وهى تتصرف.

فما هى مدلولات هذه التجربة؟.. لست أدرى وإن بدت واعدة!

إن تجربة واحدة لا تكفى بالقطع للحكم على ظاهرة، فنحن نقشر البيضة المسلوقة ثم نلتهمها بعد ذلك، أما هم - كما سأرى فيما بعد - فيقشرون سطحها فقط ويضعونها فى كأس صغير بنفس حجمها،. ثم يأكلون باطنها بالملعقة.

هناك فارق بين الأسلوبين.. لست أدعى أن أحدهما أفضل أو أصح من الأخر.. لكن تظل أفريقيا شيئًا وأوروبا شيئًا مختلفا.

تركت حقائبى وهرعت إلى الشارع ممسوسا بجن، وكأن قيامتى موعدها نفس الساعة. تركزت أرادتى ورغباتى وقدراتى ومشاعرى جميعا فى بؤبؤى عينى النهمتين للتطلع إلى هذا العالم المبهر فيما يشبه الجوع الحارق إلى متعة المشاهدة ولذة الفهم وروعة التأمل.. وبقائى بهذه المدينة

لن يزيد على يومين، فما هى الا محطة لالتقاء المبعوثين من أنحاء العالم قبل أن نعبر مضيقا تمتزج فيه مياه بحر الشمال بمياه بحر البلطيق ويفصل بين الدانمارك وجنوب السويد حيث ماركاريد.. تلك القرية النائية التى اختاروها مقر البعثة.

لو كان بإمكانى أن أحيل هذين اليومين إلى قرص فى حجم حبة قمح لابتلعته واسترحت، ولو كان بمقدورى أن أحيلها إلى عصارة معتقة لقيمة الزمن ممثلة فى ثمانى وأربعين ساعة من عمر البشرية لأحلتهما إلى ذلك العصير لأرتشفه وأستحلب حلاوته حتى القاع.

بوابات ضخمة ذات طابع كلاسيكى خلاب يجتازها السائر فى أرجاء كوبنهاجن الساحرة التى عثر أهلها على رأس جنية البحر المفقودة وثبتوها على جسدها فبدت كالحلم الملون وهى قابعة فى وقار على رأس البحيرة.

فيلان كبيران يقبعان على جانبى بوابة أخرى متميزة فى قدمها الأصيل، ومعى فى العربة أربعة عشر مخلوقا بشريا أقدارهم - مثلى - أن يولدوا فوق بقع معينة على كوكب

الأرض كتب عليها وعلى أهلها الشقاء وهل يجرؤ مخلوق على تحدى قدره؟! ولن؟ لماذا يتكثف اهتمامى وتتحرك قرون استشعارى فى دأب شديد كى أرصد ذلك الاختلاف المعضلة بينى كشرقى وبين أهل الغرب؟!.. إن نظرة فاحصة على وجوه أعضاء البعثة القادمين من عالم التوابع الذى لا يملك سوى الانقياد للمتبوع، لكفيلة بإيضاح تلك الحقيقة الإنسانية الأزلية التى تكشف عن حتمية الاختلاف حتى بين أهل الشرق أنفسهم، متجلية تمام التجلى فى قول الرب العظيم فى قرآنه المقدس «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»..

لا داعى لأن أرهق ذهنى أذن، فالاختلاف وارد وطبيعى حتى بداخلى أنا نفسى بين الحين والآخر، ولأنتظر ما سوف تأتى به الأيام القادمة من تجارب تتشوق إليها خلايا جسدى وعقلى وأعصابى.

وها نحن نلتقى جميعا فى حفل للتعارف، والويل الجميل لكل من عشق قلبه أسرار المعرفة.

* * *

«الصدمة»

إما أننى أحلم وإما أننى لست أنا، ذلك الحائر فى غرفة مكيفة بفندق دانماركى فاخر فى قلب محطة وصولى الأولى من مطار القاهرة.. هكذا فعل بى حنينى إلى رؤية ما قرأته وما سمعته عن الإنسان المتحضر والحياة الراقية.. كنت أشعر أننى طير حبيس قصت جناحاه كلما وقفت على شاطئ البحر بالإسكندرية أرقب خط التقاء المياه بالأفق على المدى البعيد. يتوهج خيالى وينتفض قلبى فتهيم روحى وراء ذلك الخط الوهمى الذى يفصل بينى وبين العالم الذى أعشقه. ويبهرنى إن هناك مخلوقات

بشـرية أخـرى من صنع الخـالق لكنهـا تخـتلف عنا فى كل شىء اختلاف دفء الجنوب عن صقيع الشمال.

إذن أنا مـوجـود على أرض الغـرب.. بعـيـدًا بعـيـدًا عن الأهرام وأبى الهول ورعمسيس ومقاهى الحسين وشاطئ الأنفوشى ونفرتيتى وأساطير الخلود. أنا الآن فى حضـرة نوبل وبرجسون وأينشتين وسارتر وبيتهوفن وشكسبير، أخـتـال بانتسـابى إلى روعـة العـقل الإنسـانى.. هـا هـى الشـوارع المتـألقـة ببـريق النظافـة تحـتـضنهـا بيوت صـغيـرة تمتلئ شرفاتها بالورود، إلا أنها تكاد تخلو من المارة لدرجة أدهشتنى.

راحت المرشـدة الدانماركـيـة التـى لا تقل عن الثـمـانين تشـرح لنا مـعالم مـدينتـهـا بثـقـة عـبـر الميكروفون المجـاور للسـائق، بينمـا العـربة سـائرة فـى أحضـان اللونين الأبيض والأخضـر تحت مظلة من سمـاء رمـادية موحـية بالشجن.. تفـخـر بتـاريخ بلادهـا لكنهـا لا تفـرض علينا هذا الفـخـر. تتمسك بأن اسم مـدينتـهـا «كـيبنهـاڤن» وليس «كـوبنهـاجن»

كما يقول الجميع، أرى على وجوه الناس بسمة من نوع غريب، إذ أنها مقترنة بالجدية والصرامة. فجأة تتساقط نتف الثلج الهشة على الأرض كما تتساقط الأفراح على حياة امرأة أنهكها الحزن.

فى الطريق إلى ميناء هلسنجور حيث الحدود الفاصلة بين الدانمارك والسويد كانت أسماء كالموسيقا تداعب أذنى. أسمعها تتردد بين كارل جوستاف مدير البعثة وبين زملائى من الدول النامية الأخرى.. أسماء مثل ستوكهولم. ماركاريد. هوديكسفال. بورلنج. جوتنبرج... من المؤكد إذن أن الحياة ليست شيًا سخيفًا على إطلاقها، فقد سبق أن قلت من قبل «إن مولدى ومماتى لا يعنيان أكثر مما تحتمل الكلمتان من معنى، أما المسافة بينهما فهى مجرد حلم سخيف»..

فوجئت بدخول العربة إلى قارب ضخم عرفت أن اسمه «الفرى بوت» أو العبارة التى ستتقلنا عبر البحر إلى ميناء هلسنبورج السويدى. كنت أعلم قبل سفرى أن السجائر هنا

مرتفعة السعر فأخفيت بين محتويات حقائبى ست باكيتات من سجائر «كليوباترة» المصرية التى لا أدخن سواها، على الرغم من علمى بأنه لا يصرح بالعبور إلا لباكيتتين فقط.

كنت متأذيا من حماقتى إذ أبدأ تجربتى فى بلاد تحترم القانون وتقدسه بمخالفة هذا القانون والالتفاف من حوله. لم أشأ أن أورط نفسى فقررت مصارحة كارل بالأمر.. فاجأنى بضحكة مصرية وهو يقول:

- إننى يا عزيزى أواجه نفس المأزق.

كارل جوستاف جسد عملاق ووجه باسم وصوت حنون وروح مرحة.. أحببته منذ الدقائق الأولى للتعرف به. أحببته على مسؤليتى على الرغم مما سمعت من تحذيرات عن هؤلاء القوم الذين لا يتعاملون الا بعقولهم. سألته فى دهشة

- كيف؟

معى أربع زجاجات من الويسكى اشتريتها من كوبنهاجن ولا يصرح لدخول السويد إلا بزجاجتين فقط لكل فرد.

- والعمل؟

- هل تحمل زجاجات ويسكى؟

- لا

- إذن أضع زجاجتين فى حقيبتك وتضع باكتتين فى حقيبتى

- يتبقى باكتتين

- لا تجزع فبيننا كثير من المساكين الذين لا يدخنون

ظننته يمرح ساخرا، لكنه لم يخلف وعده رغم أننا عبرنا الحدود الدانماركية دون تفتيش!

فى الطريق إلى ماركاريد - مقر البعثة الرئيسى - والتى أسميناها بالمنفى فيما بعد، حذرنا كارل بابتسامة مترعة بالمحبة من مطاردة الفتيات فى الغابات مؤكدا أن هناك الكثير من الدببة والأيائل ذات القرون القاتلة.

دمعت عيناى حين حوصرتا بجنتين عن يمين الطريق ويساره.. صفوف لا نهائية من أشجار الصنوبر السامقة

والتوب الفضى ومن خلفها غابات شاسعة لا يحدها بصر.. ما أجملك يا بديع السماوات والأرض.. ما أعظمك!

بصعوبة بالغة تخلصت من دهشتى الشديدة لموقف كارل من الجمارك الذى جعلنى أشعر أننى لم أبتعد عن مصر كثيرا، خاصة حين وجدت نفسى محاطا بهندى وعراقى وكوبى وفيتنامى.

بعد أن انتهى حفل التعارف صعدت منهكا إلى غرفتى بالمقر، منشغلا بحيرتى الشديدة التى واجهتنى أمام الآلات المتعددة التى كنت مضطرا لفهم كيفية التعامل معها من خلال مراقبة الآخرين بحذر شديد وهم يضعون فيها القطع المعدنية للحصول على أى شىء ابتداء من تذكرة المترو وانتهاء بكوب المشروب الساخن.

أول ما خطر ببالى أن أكتب خطابين إلى زوجتى وأمى، فوجئت بالعرق يتصبب على جبينى، وذهول مفاجئ يعترينى. ظللت أغدو وأروح داخل غرفتى الجميلة التى لم أتأملها بعد، وقلبى ينزف هلعًا.. هل عنوان منزلى أمام

رقم (٥) أم خلف رقم (٦) أم بجوار رقم (٤). فليس لبيتنا رقم، ولهذا اعتمدت فى مراسلاتى تحديد العنوان منسوبا إلى واحد من الأرقام الثلاثة.

قبل أن أفكر فى النوم وبعد أن دخنت حتى احترق صدرى، ترددت فى طلب طبيب البعثة لفحص ذاكرتى، وكان من الأنسب لى أن أتناول مهدئا حتى لا أشعر أثناء نومى أننى نائم بذاكرة صعقتها صدمة الحضارة.

* * *

«المسافات البعيدة»

تفزعنى نظرات عينيه التى تبدو محايدة بينما تخفى فى أعماقها قدرا عظيما من الشعور بالاستعلاء والعظمة. دائم التوجس منى وكأنه قرأ ما يعتمل بصدرى تجاهه. من المؤكد أنه لم يقرأ ما تأصل فى هذا الصدر من يقين بأن الله حين خلق هذا العالم أراد لمخلوقاته - جميعا - السعادة والحرية والفرحة بكونهم خلفاء له فى الأرض.

مستر «بورش» المدير الفنى للبعثة أنموذج صارخ يبرز التناقض بين الشمال والجنوب أو بين التقدم والتخلف.

منذ الأيام الأولى للبعثة والجميع يتوددون له عن طيب خاطر فيما عداى. شىء فى داخلى يمنعنى من ذلك. جهاز دقيق حساس وضعه خالقى فى قلبى ينقل فى براعة نبضات الآخرين تجاهى سواء كانت نبضات جذب أو طرد.. وفى الحال يتشكل سلوكى تجاههم فى ضوء قوة النبضات أو ضعفها مثلما يحدث تماما فى أجهزة القياس والتحكم الآلى التى ابتكرها أهل الغرب وباعوها لنا بأغلى الأسعار... (سوف أتحدث تفصيليا عن ذلك الجهاز فى معرض حديثى عن المبعوثين).

ومن الغريب أن يكون مستر كارل جوستاف المدير الإدارى للبعثة على النقيض منه تماما. لقد أكد لى الإنذار الإلهى أن هذا الرجل يشعر تماما بتفوق جنسه على سائر الأجناس الأخرى، لكنه لم يظهر لأحد منا هذا الشعور ولو مرة واحدة بطريق الخطأ العفوى.

يتحدث بورش فى حفل التعارف عن مناصبه العديدة فى الدولة، ويفيض فى الحديث عن أبنائه النابهين الذين

يدرسون ويعملون فى عواصم العالم الكبرى، بينما يتحدث كارل عن الفن والثقافة وأهمية التقارب بين الشعوب الغنية والفقيرة.

انفجرت زوجة بورش فى الضحك حين قلت لها إن زوجتى بكت وهى تودعنى ليلة السفر. بدت على وجهها دهشة مشوبة بالغيرة وكأنى أقول كلاما غير معقول بلغة غير مفهومة.

رددت زوجة كارل ما سمعته أكثر من مرة حتى الآن، إن أهل السويد متباعدون روحانيا بسبب تباعدهم الجسمانى، فالبرودة تؤدى بهم إلى الاعتكاف فى منازلهم المكيفة واستغناء كل منهم عن الآخر فى عزلته.

الحق أننى مرتبك تماما. حائر بين موضوعية مشتهاه وجهل شديد بطبيعة هؤلاء القوم الذين أسىء الظن بهم أحيانا وأحسنه أحيانا أخرى.

ألقيت بذبذباتى الترددية على كاهل يوسف الدباغ زميل البعثة الفلسطينى وصاحب الخبرة العريضة فى السفر إلى

العديد من بلدان أوروبا وأمريكا،. قال لى بهدوء وهو يعب الخمر فى تمرس عجيب:

- قد ينظر كل مبعوث من هؤلاء القادمين من دول المجاعات إلى أهل السويد بمنظار مختلف عن الآخر، لكن الرؤية واحدة فى النهاية أذ أن الجميع يعانون من القهر والحرمان والشعور بالدونية ليس على مستواهم كأفراد فقط بل على مستوى الشعوب والحكام.

- وأنت ... ما موقفك؟

- متفرج سعيد بيأسه

كلما التفت المجموعة حول كارل تتضاحك معه وتستثير خفة ظله وبراعة قفشاته لمحت الغيرة فى عينى بورش. قلت ليوسف:

- إنى أمقت هذا الرجل

- قهقه ضاحكا وهو يقول فى لامبالاة:

لقد قالت لى زوجته نفس الكلمة عنه بعد الكأس الثالثة مباشرة.

نزلت العبارة على رأسى المصرية كالصاعقة!.. لم أستطع أن أتصور كيف تسىء امرأة إلى زوجها وهو على بعد خطوات منها . بمثل هذا القول الغريب وبهذه البساطة؟.. أفقت من ذهولى على منظر المبعوث السيريلانكى كولانتاهاى كوماران وزميله إسلام البنجلاديشى وهما يهجمان على الطعام والشراب بنهم من يأكل ويشرب للمرة الأولى فى حياته.

يبدو أننى متفنن فى تعذيب روحى بلا مبرر.. لقد أثار منظر هؤلاء الأسيويين فى نفسى شعورًا بالتقزز من انتمائى لعالمهم، وشعرت أن نظرات التعجب والإشفاق الواضحة على وجوه السويديين تجاههم ما هى إلا طعنات مصوبة إلى قلبى دونًا عن الآخرين.

حسن.. أنا مواطن مصرى أنتمى إلى دولة نامية. جئت إلى هذه البلاد لأتعلم من أهلها أصول الصناعة الحديثة. تكاليف بعثتى بأكملها على نفقتهم، لن أردد لنفسى كالببغاء أنهم لا يقدمون هذه المنح الدراسية إكراما لسواد عيون

المصريين أو غيرهم، وإنما كدعاية مؤثرة لدولتهم وتسويقا لمنتجاتها فى خمس عشرة دولة مستهلكة.

سأعترف بالحق، وأواجه نفسى بضرورة الامتنان لجميلهم.. «ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات».. صدق الله العظيم.

وقف بورش يتحدث بفخر عن تقدم بلاده الصناعى وعن تقديمها العون والمساعدة للدول الفقيرة وضرب مثلا على ذلك بهذه البعثة، وعندئذ ركز بصره فى وجهى وكأنه يتعمد إذلالى وتعذيبى وهو يقول:

- إن ما تنادون به فى دولكم النامية من ضرورة التوفيق بين النمو الاقتصادى والعدالة الاجتماعية الأمر يدعو إلى الدهشة فى عالم تتفوق فيه أهمية الفرد على أهمية المجتمع وتتفى ظاهرة الصراع الاجتماعى وتنتشر التعددية الإعلامية لتفرض على الدنيا ما تريد.

وأهمس فى أذن يوسف وقد بدأت الخمر تلعب برأسه:

- أيعجبك قول هذا النازى؟

فيجيبنى بحسم وكأنه أفاق لتوه من السكر

- لماذا تكابر يا مصرى؟.. إنه يقول الحقيقة فما يستوى الأعمى والبصير!

وأنطوى على مرارتى.. فمن المؤكد أن أحدنا لم يفهم حقيقة ما يقصده كل واحد من الاثنين الآخرين.

* * *



فى مصادفة لا تفسير لها عثرت بين أوراقى ومذكراتى العلمية على ورقتين فى نفس اليوم. لست أدرى كيف ضلت كل منهما الطريق إلى مكانها الطبيعى فجاءت حيث وجدتها.

إحداهما كتبتها بخط يدى ليلة مبيتى بالقاهرة فى بيت صديق لى قريب من المطار، إلى حيث أتوجه فجرًا لأستقل الطائرة المتجهة إلى كوبنهاجن، أما الأخرى فكانت مكتوبة باللغة السويدية ولم أدرك مضمونها إلا بعد أن ترجمها إلى الانجليزية موظف سويدى يعمل فى نطاق البعثة، ولما

اكتشفنا معا أن كاتبها هو كارل جوستاف . الذى يعمل هذا الموظف تحت رئاسته . طلب منى كلمة ثقة أن يظل أمر هذه الورقة سرا بيننا حتى أعيدها إلى صاحبها .

الورقة الأولى:

أمضيت النهار أجول فى شوارع القاهرة وكأننى أودعها ليلة السفر إلى أوروبا ... فى القاهرة يسير الحمار جنبا إلى جنب مع القطار والترام والعربات المرسيدس والعربات الكارو ولابسى الجلاليب والعقالات ومطلقى الذقون وملوك الأناقة الغربية وملكاتها يهيمون بالآلاف فى وضح النهار كما لو كانوا جميعا يعانون من البطالة.

غدًا أكون فى الغرب بمشيئة الله.. معشوقى الذى ظللت أحلم به ستة وثلاثين عاما من عمرى.. أنا ذاهب إلى السويد ولدى كلام كثير أريد أن أقوله هناك وأفكار لاحصر لها أتمنى أن أناقشها معهم.. أريد أن أعرف ماذا يقولون عن فكرة برتراند راسل بإنشاء حكومة عالمية لها سلطة فعالة تجعل الحرب مستحيلة فى المستقبل... ولابد

أن أراجع معهم ما قاله آرنولد توينبى بأن أى مشروع لدستور عالمى قد يبدو أكثر جمالا من الواقع، هذا إذا نجحنا فعلا فى إنشاء حكومة عالمية بصورة من الصور، ذلك أننا نتشبث دائما بالسيادة القومية.

أريد أن أعرف رأيهم فى مذهب «الجوهرية» الذى تروج له الكاتبة الفرنسية «سوندارى» والتى تدعو البشر فى كل أنحاء العالم الى نبذ طقوس الأديان الثلاثة اكتفاء. بممارسة مضمونها المشترك.. وكنت قد قرأت كتابها وبعثت إليها بخطاب أناقش فيه أسباب اختلافى معها، فبعثت لى برد مختصر فى كلمات ثلاث:

- إنى أصلى لأجلك

وتعجبت كيف ستصلى لأجلى بلا طقوس!

لابد أن أناقشهم فيما قاله «سارتر» بأن «مشكلة فلسطين مشكلة تافهة لأن الفكرة الصهيونية كما تصورها هرتزل فى نهاية القرن التاسع عشر والمتضمنة إنشاء دولة يهودية فى القدس، لا تعد جريمة بمقياس ذلك العصر

لكونها حلا استعماريا مثل كل الحلول الأخرى فى ذلك الحين».. إننى بشوق شديد لتأمل المفهوم الغربى بنفسى، والذى تسلسلت فيه المشكلة بالاضطهاد الألمانى المزعوم لليهود ثم شعور الغرب بالذنب تجاههم ثم تولى أمريكا وبريطانيا تخفيف هذا الشعور باهداء فلسطين لإسرائيل!..

وحين أتحاور معهم لن يغيب عن خاطرى ذلك الحوار الذى دار بين مهندسة أمريكية فى مصر منذ عامين أو يزيد، وكان الحديث عن أساليب التفكير المختلفة عند الشعوب، حين أشارت إلى سكين على المائدة متسائلة فى هدوء:

ـ ما هذا يا مستر سالم؟

خيل إلى أنها تسخر منى أو أنها تمهد لسؤال آخر تترتب عليه نية مجهولة ينبغى الحذر منها وفكرت فى تجاهل السؤال وفكرت فى...

ـ لقد غبت طويلا قبل أن تجيب فى كلمة واحدة لا بديل لها

- معك حق.. إنه سكين

- خذه

أعطتنى السكين بسرعة وقالت

- جاء دورك الآن أن تسألنى نفس السؤال

فسألتها متوجسا

- ما هذا؟

غمزت بعينها ضاحكة وأجابت على الفور بلا تردد

- هذا سكين

حسدتها على طمأنينتها وتنفست بعمق وقد انتابتنى الحيرة حول مقصدها من هذا الحوار الغريب.

قالت بثقة:

- الفرق بينى وبينك أنك حملت المسألة فوق ما تحتمل قبل أن تجيب عن سؤالى، أما أنا فسرعة إجابتى لا تعنى السذاجة أو ضحالة التفكير أو التسرع، وإنما تعنى الثقة والبساطة والصراحة واقتحام الحقيقة من أقصر الطرق.

إنى أظن أن فى هذا الحوار مفتاح الوسيلة المباشرة للنجاح فى التفاهم مع هؤلاء الناس الذين أتوق للقائهم».

الورقة الثانية :

ملاحظة: هذه هى الترجمة العربية للترجمة الانجليزية التى كتبها إلى موظف البعثة وكان عنوانها :

The More You Have, The More You Need

ويبدو أن كارل كان ينوى الكتابة حول هذا الموضوع ولم يكمل ما كتبه أو أنه أكمله فى أوراق أخرى سقطت من بينها هذه الورقة من حيث لا أدرى ولا أحتسب.

«ما أبدع أن تتجدد الحياة وتتنوع بالإضافة أو حتى بالخصم، بعد الصلاة أغادر الكنيسة إلى الفندق مباشرة ومعى أوراق البعثة. يغمرنى تفاؤل شديد هذا العام، كانت بعثة العام الماضى حافلة بالمشكلات الفنية والإدارية والإنسانية، يحاسبنى «بورش» المدير الفنى الغيور عل كل صغيرة وكبيرة. تغمره السعادة لوقوع مشكلة ما حتى يتلذذ بالنظر إلى فى استعلاء وهو يتساءل عن أسباب المشكلة،

دائم التوجس منى خيفة أن أحتل مقعده كمدير فنى للمنح والبعثات العلمية القادمة من العالم الثالث، وعلى الرغم من علمه بأننى على وشك الإحالة إلى التقاعد، تنهش الغيرة قلبه وتندفع الدماء فى وجهه حين يرى شباب هذه الدول الفقيرة ملتفين حولى فى محبة واحترام. يدعوهم للعشاء بمنزله ليلة وصولهم - على نفقة الدولة طبعا - فيتحدث طويلا عن نفسه أولا ثم عن أبنائه النابغين فى العلم والفن والأدب والرياضة وكل شىء يتعلق بالدنيا والآخرة!

وعلى الرغم من هذا فهو إنسان مهذب شديد الحرص فى انتقاء ألفاظه ومواقفه، فائق القدرة على إخفاء مشاعره التى غالبا ما يعجز عن مقاومتها.. يا زميلى الغيور: إنى أصلى لأجلك!

جلست على مقعد القيادة وأحكمت حزام الأمان حول صدرى، بالأمس سهوت عن ذلك فاضطرت إلى دفع خمسين كرونة لمخالفة القانون، لقد كنت شاردا فى أمر ذلك الشاب الهندى الذى أثار حيرتى وذهولى خلال بعثة

العام الماضى، وأعتقد أننى لست أبالغ فى القول بأننى مازلت محيرا فى أمره حتى الآن.. لقد كانت المرة الأولى فى حياتى التى أرى فيها آدميا يبكى بحرقة أثناء تناوله الطعام، أمضيت ليال عديدة أفكر فى ذلك المشهد الإنسانى العجيب!.. أرقتنى الظاهرة فرحت أرقبها بعناية فائقة وتركيز شديد. رأيت فى دموعه مزيجا غامضا من اللذة والألم.. الحرمان الذى لن يموت أبدا. والحيوانية التى لا يمكن أن تطاق.. الطفولة التعسة وحياة الفقر المدقع والخوف الشديد من الثوانى القادمة من الزمن.

منذ البداية لم يكن هذا الشاب يعبأ بضحكات من حوله ودهشتهم وتندرهم، وبمرور الوقت خفتت التعليقات وتضاءلت الدهشة ولم يبق حيرانا سواى.. إن شبح هذا الشاب مازال يطاردنى حتى الآن، وكأنى المسئول الأوحد على هذه الأرض عن مأساته.

إنى أعتقد بعمق فى عدالة السماء ولكنى لست أعرف لماذا كتب الفقر والحرمان والتخلف على هؤلاء الناس،

ويبدو أنه صحيح ما يقال أن درجة الحرارة تتناسب عكسيا مع درجة الحضارة!

لقد نجح أجدادى باقتدار شديد فى شق الطرق وإقامة الكبارى والأنفاق والمصانع على الرغم من قسوة الطبيعة. ووحشة الغابات وشدة البرد وأنهمار الجليد وضراوة الحيوانات المفترسة. وها نحن جيل الأحفاد نتقدم العالم بأسره فى العلم والصناعة، ومستوى دخل الفرد عندنا لا يقارن بأى مستوى آخر.

وعلى الرغم من هذا فشباب هذه الأيام كسول لا يريد أن يعمل.. وجد كل شىء ميسرًا أمامه فأدمن الرفاهية وراح يضرب عن العمل بين الحين والآخر مطالبًا برفع الأجور.. وأما أطفالنا المساكين الذين ولدوا فى عصر المعلبات والميكنة والتصقوا بأسمنت المدينة، فإن بعضهم لا يعرف الحيوانات ويسأل فى أى المصانع يصنع البيض واللبن؟!..

- أقدم لكم مسز هليدا سكرتيرة البعثة

فى صالة الاستقبال بالفندق كان التعارف. خمسة عشر مبعوثا من أنحاء العالم الثالث. نحن نسميهم بالدول النامية ترفقا بمشاعرهم، هناك دول غيرنا تسميهم بالدول المتخلفة،. ولا تعبأ بمشاكلهم ولا حتى بمعرفة أسماء بلادهم فى بعض الأحيان.

لقد جاءوا جميعا ليتلقوا العلم عندنا وعلى نفقتنا. شىء رائع أن ألتقى بالعالم فى هذا المكان. إنى أشعر فى مثل هذا اليوم من كل عام بالامتلاء. أنسى كارثة ابنتى الجميلة ونظرات زوجتى ذات الحزن العميق.. أوه.. ما أجمل أن تقوم الحياة على التعاون بين القوى والضعيف.. وجوه هؤلاء الشباب مكفهرة من شدة التعب والتوتر والخوف من المجهول، لكن عيونهم تنطق بالفرحة لقدومهم إلينا نحن أرقى شعوب العالم أجمع. إنى أحبهم وأتمنى.......

* * *

«أعراض الفجوة»

تخصنى ماريا بنظرات موحية. فى ابتسامتها الحنون أمومة عذبة تجذبنى إليها وتأسرنى مثلما تأسرنى الرقة الأنثوية المتسامية فى أى زمان ومكان.. على وجهها علامات انبهار لا تفارقه، تضفى عليه مسحة من الجمال البرىء الساهم الذى يستثير شياطينى الكامنة ويوقعنى أسيرا للفتنة النائمة فى عينيها الزرقاوين الصافيتين، ولحيويتها المتدفقة التى تتفجر فى روحى كلما قالت أو فعلت أو انفعلت. أما شهقتها الدائمة التى تتخلل عباراتها من آن لآخر فكانت تلقى بى فى غيبوبة من السحر... وكنت أضع وجهها بين كفى وأهيم فى أمواج شعرها

البرونزى الناعم، وأقبلها مائة مرة فى اللحظة الواحدة دون أن أرى ودون أن تدرى ودون أن أريدها أن تدرى.

ماريا هى نائبة هيلدا فى سكرتارية البعثة.. دائما متواجدة، لا تغيب عن الأعين إلا فيما ندر.

- متى تجدين الوقت للذهاب إلى زوجك؟

- أنا لا أذهب إليه فقد انفصلنا وإن كنا لا نزال صديقين حميمين

- وابنك الذى تذكرينه دائما!

- هانسون يعيش فى جوتنبرج ولا نلتقى إلا مرة كل عام

وددت أن تنشلنى من الغرق فى دهشتى وأسألها:

- هل تقبلين أن أفتح أبواب عقلك وقلبك حتى أدخل فلا أخرج؟!

لكنى لم أقل شيئا فراحت تعبث ببعض أوراق حقيبتها ثم أطلعتنى على صورة فوتوغرافية لفتاة تفوقها جمالا وشبابا. سألتها فى لهفة:

- شقيقتك الصغرى؟

- أمى

- هذا شىء غير معقول

- يجب أن تراها بعينيك حتى تصدق

كانت تناديها باسمها المجرد «جونيلا». تحدثنا أمامى كصديقتين لا أكثر. انجذبت إلى الأم بنفس الدوافع الغامضة ما ظهر منها وما خفى، والتى انجذبت بها إلى ماريا، وكأننى قطعة برادة من حديد ليس بوسعها إلا أن تنساق بأمر الطبيعة إلى مجال الجذب المغناطيسى للجمال. تشجعت قليلا وسألت جونيلا التى استضافتنا بمنزلها الصغير الأنيق:

- أين زوجك؟

- لم أتزوج

- معذرة.. لم أسمعك جيدا

- قلت لك لم أتزوج

انتابتنى ضحكة عصبية. كانت ماريا تكتم ضحكاتها ولا

تعلق وكأن المسألة لا تعنيها فى شىء. أشرت بإصبع مهتز إلى ماريا متسائلا فى ذهول:

ـ وكيف إذن...؟!

أجابت جونيلا فى دلال

ـ من رجل طبعا

كان لابد أن أتلعثم وقد أسقطتنى الطائرة من كوكب إلى كوكب آخر بلا تمهيد..

ـ وأين هو.. أقصد من هو.. كيف؟!

ابتسمت جونيلا فى هدوء

ـ اسمه اندرسون. كنا متحابين لكنا لم نتزوج وهو الآن يعيش فى هوديكسفال

ـ وهل تزوج من غيرك؟

ـ هذا أمر لا يعنينى

أصابنى صداع نصفى مفاجئ واختلطت على كل الأمور. تصنعت الحصافة قائلا فى ثقة مضحكة:

- أما ماريا فهى ابنتك منه بالطبع!

- أوه.. أنت تسأل كثيرا يا مستر سالم

فاجأتنى ماريا بنظراتها الموحية وقد امتنعت تماما عن الضحك وهى تقول:

- لا تندهش كثيرا لما سمعت، فالحياة مليئة بالأعاجيب

فى المساء شربنا كثيرا. كان همى فى دنياى منصبا على محاولة فهم أيهما تريدنى دون الأخرى.. على الرغم من ذلك لم أكن واثقا على الإطلاق أن أيا منهما تريدنى، فمنذ وطئت قدماى أرض السويد أصبحت كالمصاب بعمى الألوان تجاه دلالات المواقف والأفكار والأفعال.

كنت أرتعد خوفا من ارتكاب خطأ غير حضارى، إذ أننى أفكر بطريقة مختلفة وأشعر بإحساس مختلف وأقيس بمقاييس مختلفة. بل إن قلبى يدق بشكل مختلف وكلما توافقت إشارات ذهنى مع أعصابى الحركية أوقفنى الخوف والتردد وخشية سوء العاقبة، فلا أنا طلت الرجل الخجول الوديع الذى تسحبه المرأة فى هدوء إلى أحضانها

ولا طلت الرجل الذى يعرف كيف يقتحم قلب المرأة من أى جنسية ليقودها إلى صدره.. هكذا كان حالى بين حسناوين فى أقصى شمال غرب العالم.

أفقت فى الصباح لأجد نفسى وحيدا تحت أغطية ناعمة من الفراء فى فراش جميل.. نزلت إلى الحديقة. برودة ربيعية منعشة سرت فى جسدى وزقزق عصفور ملون على غصن شجرة،، وتبخرت مشاعرى بالخجل والذنب والفشل مع أنفاس الصباح المعطرة بروائح الزهور.

* * *

«العالم فى سلة واحدة»

أقامت لنا إحدى الشركات المضيفة حفل استقبال جمع بينى وبين المبعوثين الثلاثة الذين شاركونى فى زيارة هذه الشركة.. وفى عفوية تامة تحول مجرى الحديث إلى السياسة حين قال سليمان الجربوع: إن لمصر فضلا فى تعليم الشعب السعودى والمساهمة فى نهضته الحديثة حتى من قبل اكتشاف البترول.

تذكرت الأقلام الرصاص التى كنت أراها فى طفولتى مطبوعا عليها مهداة من الحكومة المصرية الى الشعب السعودى». وقال فياندور مستفزا الجربوع:

ـ إن الشعوب العربية بأكملها لم تنجب زعيما مثل جمال عبد الناصر، فمن بعده استكانت للهزيمة والتبعية

بعد قليل جاء يوسف الدباغ ثائرًا وألقى بجريدة مسائية على المائدة مشيرًا إلى خبر عن هجوم إسرائيلى على معسكر للاجئين الفلسطينيين فى بيروت ومقتل عدة أفراد.. صرخ الدباغ:

ـ ما الذى أفدته الآن من معرفة أن لى خالين قتلا فى هذا الهجوم؟!

هاجت فى رأسى الأفاعى والثعابين التى يتلاعب بها الحواة فى بلادى ورحت أرقب الدباغ فى ذهول وهو يصرخ ويزمجر ويتناثر الزبد الأبيض من فمه قائلا وهو يشير إلى أوراق العمل:

ـ ما الذى سأفيده من دراسة هذه المشروعات؟.. أين هذا الوطن الذى سأنقل إليه خبرتى؟

كان من المستحيل أن أذكره بأن هذا الوطن هو الأردن الذى أعطاه جنسيته وأرسله إلى هنا، فقد تصاعد صياحه

منذرا بإفساد الحفل حتى فوجئنا بكارل جوستاف يأتى إلى البهو مهرولا.. وبعد أن تفهم الموقف قال بابتسامة أبوية حانية:

- أنتم أحرار فى مناقشتكم ولكنى أخشى أن توقع السياسة بينكم

صرخ الدباغ فى وجهه بحرقة:

- يحق لك أن تتحدث بهذه الطمأنينة عن السياسة لأنك لم تسمع فى حياتك عن شاب قتل أمه بمدفعه ليرحمها من عذاب الموت شيًا بنابالم الإسرائيليين.

حاول كارل امتصاص ثورته معتذرًا فى رقة:

- أنا آسف مستر دباج.. أنا آسف جدا

لكن الدباغ يزداد هياجه ليطغى على صوت الموسيقا ويلفت الأنظار

- علام تأسف وأنتم تساعدون إسرائيل وتتبنون مواقفها الإجرامية فى كل محفل دولى؟!

جلس كارل فى هدوء وأشعل سيجارة وهو الذى لا يدخن إلا نادرا. بعد لحظة تأمل مشوب بالحذر قال ببطء وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة:

- يا بنى لا تخلط الأمور ببعضها.. حتى لو كان كلامك صحيحًا، فهذا المكان الذى جئت إليه بإرادتك مختص بتلقى العلم فقط.

- إذا أردتم مساعدتنا فلا يليق أن تمنوا علينا

وقع يوسف فى المحظور الذى طالما حرصت ألا أقع فيه. إن سقطات اللسان تنبئ دائما عمّا بأغوار النفس من مشاعر خافية يدفعها الوعى إلى الأعماق خجلاً منها وتعتيما عليها.

ويتعجب كارل قائلا بنية حسنة دون أن يدرى أنه يزيد الطينة بلة:

- أنا لا أفهم هذا المنطق. نحن نساعدكم بالفعل كشعوب فقيرة ولكننا لا نغفل حقكم الإنسانى فى حسن المعاملة والتكريم.

أخذ الدباغ يسب ويلعن فى الدنيا والناس والماء والهواء بلغة عربية لم يفهمها كارل ولم أفهمها أنا الآخر. فى النهاية جلس متخاذلا فأشفقت عليه بشدة وكان تعاطفى معه صادقا حتى انفرجت الأزمة.

اندفع فياندور فجأة كمن يريد إشعال جذوة الحريق قائلا بخبث:

بل إن الدول الغنية تستعبدنا وتستخف بعقول شعوبنا الجاهلة وحكامنا الديكتاتوريين وأنا أوافق الدباغ على كل كلمة قالها.

أدهشنى حديثه عن الحكام الديكتاتوريين فبماذا يسمى فيدل كاسترو الذى يسبح بحمده ليل نهار؟! ولكن ما الفائدة، فلو تنبه فياندور إلى هذا الانفصام فى شخصه لتنبهت أنا الآخر لانفصامى ولتنبهت شعوبنا جميعا إلى الخدعة الكبرى التى ستظل تعيش ضحية لها إلى أجل غير مسمى.

لم يتخل كارل عن صبره ووقاره وهو يقول:

ـ لست أمانع أيها الأصدقاء من عقد ندوة سياسية نناقش فيها العلاقة بين الدول المتقدمة والدول النامية من النواحى السياسية والاقتصادية، على أن تعقد هذه الندوة فى غير وقت العمل الرسمى. استرخى الجربوع فى مقعده وقال وهو يقضم تفاحة وعيناه مشدودتين إلى صورة امرأة شبه عارية معلقة على الحائط:

ـ هذا عظيم والله.. أنا موافق.. وفى نفس الوقت أعتذر عن عدم حضور هذه الندوة.

لم يسأله أحد لماذا يعتذر، وجاءت ماريا فى ثوب شرقى حاملة بعض المشروبات. مالت على تهمس قائلة فيما يشبه الدعوة لمرافقتها:

ـ إنى أعد العدة لزيارة ابنى هانسون فى جوتنبرج

سيطرت نظرات التساؤل على وجوه الزملاء جميعا عدا الدباغ الذى عزله حزنه عن العالم.. تصورت للحظة أن الدباغ نفسه هو ذلك الشاب الفلسطينى الذى قتل أمه رحمة بها.. ترى هل يحب هانسون أمه الجميلة المرفهة.

هيلدا كما أحب الدباغ أمه شريدة الملاجئ والمخيمات لدرجة القتل؟!

فجأة وبطريقته التلصصية أخرج فياندور الكوبى آلة التصوير التى لا تفارقه أينما ذهب. يلتقط بها صور الناس والأماكن بعين جاسوس، يسأل عن أسماء مصانع غريبة لا يعرفها أحدنا ويطلب زيارتها بصفة خاصة ويلتقى بأناس لا علاقة لهم بالبعثة ولا يتحدث معهم إلا همسا.

أما حديثه الدائم معنا فلا يخرج عن أمجاد الحزب الشيوعى الكوبى الحاكم والذى لا حزب لديهم سواه. ثم إنه يقارن فى صفاقة غريبة بين الاشتراكية فى كوبا والاشتراكية فى السويد مفضلا الأولى على الثانية، فأنظر إلى حذائه الغليظ الرخيص ثم إلى ماريا ونبتسم معًا فى صمت.

ويفقد الدباغ توازنه لكثرة ما أفرط فى الشراب فيقف مترنحا أمام ماريا يطلبها للرقص لكنها تعتذر فى لطف، يتجه الدباغ الى عجوز تجاوزت السبعين فتقبل طلبه بسرور. يقهقه الجربوع وتتعالى ضحكاته حتى تصل إلى

مسامع الدباغ، فى لمح البصر يلتقط فياندور صورة للدباغ وهو يراقص الشمطاء فيقول له الجربوع السعودى:

- سوف أدفع لك مائتى كراون لو أعطيتنى هذه الصورة

بعد انتهاء الرقصة كاد الدباغ أن يشتبك مع فياندور لولا أن تدخل كارل للحيلولة دون ذلك. أما أنا فقد التزمت الصمت لسببين أولهما أننى لم أشذ فى صمتى عن سائر المثقفين الذين يتميزون فى كل مكان وزمان بالسلبية وقلة الإقدام على الفعل الإيجابى المؤثر، وثانيهما أننى كنت دوما أتحاشى صداما مؤجلا بينى وبين الدباغ لأنه كان يتعامل معى بصفتى أنور السادات نفسه، فأنا عنده المسئول عن اتفاقية كامب ديفيد وأنا خائن العروبة وأنا بائع قضية فلسطين للصهاينة والأمريكيين.

ورغم صمتى فقد حاول الدباغ أن يتحرش بى خلال حديث عابر عن نظم الحكم الفردية فى الدول العربية حين حول دفة الحوار إلى ما يشبه السباب فى مصر شعبا وحكومة فاستأذنت الحاضرين للذهاب إلى دورة المياه.

عند عودتى جلست إلى مائدة بعيدة مع مجموعة من الشباب المرح. تعالت صيحات الفتية والفتيات وصرخاتهم المنتشية بإيقاع الديسكو ولألأة الأضواء الملونة الخاطفة للبصر فى تعاقب سريع. وخلعت فتاة حذائها فوضعته بجوارى على المائدة وجرت حافية إلى حلبة الرقص بينما أتأمل جمالها وجنونها فى سعادة وانبهار.

بعد دقائق قليلة فوجئت بماريا تقف أمامى متسائلة فى دلال وكأنها تصالحنى بعد طول خصام لم يكن:

- هه.. ما رأيك؟!

تغلبت سعادتى بجمال المفاجأة على توترى وارتباكى وقمت أصحبها للرقص وأنا حتى هذه اللحظة لا أدرك مغزى هذا الفعل الإنسانى الجميل الذى فطر عليه البشر منذ بدء الخليقة: الرقص!

قرأت ماريا فى عينى امتنانًا بالغا فقالت بمكر ظريف:

- لقد ألح علىّ السعودى كى أراقصه

- ولماذا لم تفعلى؟

- خشيت أن يعرض على مائتى كراون!

* * *

«ابنهما»

لم أنس دعوة ماريا لمصاحبتها فى زيارتها لابنها هانسون المقيم فى جوتنبرج. كنت أعى جيدا أن هدفها من الدعوة لا يتجاوز إشباع فضولى لدراسة طباع شعبها وعاداته الاجتماعية وتفهم أساليب تفكيره ومعيشته والتى تختلف جميعا عما ألفته فى حياتى من قبل.

فى الطريق إلى جوتنبرج كان انبهارى بروعة الطبيعة يعيد إلىّ روح الدهشة التى كانت تلازمنى فى طفولتى وصباى. هزنى ارتقاء هذا الشعب فأحببته وأنكرت عليه مسحة الحزن العميق التى تغلف وجهه فى الصباح فلا

تزول قبل غروب الشمس واندلاع الموسيقا فى المراقص والملاهى والمنتديات الليلية الصاخبة.

تقر عيناى برؤية البيوت الصغيرة ذات الأسقف القرميدية الهرمية الحمراء، متناثرة على مسافات بعيدة وسط مساحات شاسعة من الخضرة المطعمة بالجليد... ومن أرض الشمال البارد تسللت زهرة حنون مخترقة طبقة الجليد برفق ملائكى لا يعرفه البشر.. انعكس لونها الأصفر الزاهى على وجه ماريا فأضاءه بابتسامة نورانية مشرقة بشمس الربيع، وبدت كطفلة مبهورة بالجمال.. رأيت فى اخضرار قلبها تساقط قطرات الجليد الذائب على فروع الأشجار المتهللة بالفرحة، وانتشر الشماليون فى الأرض سعداء بتغريد طيورهم الملونة، منشرحة صدورهم بحب الحياة.. لقد أمدهم الكون بنفحة من الرضا والتفاؤل أزالت عبوسهم وأصبحت معنوياتهم فى السماء فتركوا بيوتهم المحصنة وانطلقوا فرحين بنشوة الوجود.. وصاحت ماريا فى بهجة مضيئة:

- أنظر.. كم هى جميلة هذه الوردة!

فى جوتنبرج أرى البنايات الضخمة والعمارات الكبيرة لأول مرة.. قالت ماريا إن سكان هذه المدينة وسكان ستوكهولم أيضا قد بدءوا ينزحون إلى القرى والغابات ليعيشوا بها هربا من الزحام والمبانى الأسمنتية والضجيج والتلوث.. ما أحلى الحرية وما أروعها.. وأى تلوث هذا الذى تتحدثين عنه يا ماريا.. لو كنت تريدين معرفة التلوث الحقيقى فأهلا بك فى عاصمة بلادى العامرة بكل صنوفه وسلالاته.

ومثلما التقت ماريا بأمها من قبل، التقت بابنها وكأن هذا الكيان الإنسانى الحى المتجسد لم يخرج من أحشائها.

عاطفة لاحماس فيها ولا فتور، وإنما هو استقبال عادى بين صديقين غير حميمين، إنه شىء مزعج للغاية، لكنه فى الوقت ذاته شىء مثير للتفكير والتأمل!

قال لى هانسون أمام أمه:

- هل رأيت والدين مجنونين كوالدى؟!.. كل منهما يعيش -

فى مدينة ولا يستغنى أحدهما عن الآخر.. وعلى الرغم من ذلك ينفصلان!

- ولماذا لم تفكر فى عقد مصالحة بينهما؟

لا يتجاوز عمره ستة عشر عاما لكن بناءه الضخم يوحى بأنه رجل مكتمل النضج.

- فى البداية فكرت فى ذلك، لكنى رأيت أنه من الأفضل ألا أتدخل فى حرية أحدهما، فضلا عن أننى سعيد بحريتى فى غيابهما!

آه لو كنت حيا ترزق يا أبى.. كنت أتمنى أن أسمعك هذه الكلمات لأعرف انطباعك.. كانت أمى تصحب أخى الأكبر فى يدها حتى يوم أن قدم أوراقه للالتحاق بالجامعة، وظلت المسكينة تتابع بلهفة وحماس مشاكل أبنائها وبناتها وأخبار أحفادها: من ولد ومن مرض ومن مات ومن تزوج ومن لم يحصل على مجموع عال من الدرجات لانصرافه إلى مطاردة الفتيات.

فجأة قال هانسون:

- أمى.. لقد قررت الهجرة من هذه البلاد الباردة!

اشتعلت أجهزتى الرقابية بنيران التوجس فنظرت بسرعة إلى عينى ماريا متفرسا فى معالم وجهها وانفراجة شفتيها، وانتظرت أذناى سماع نشيد حزين، لكن ماريا سألته ببراءة طفل:

- إلى أين يا عسل؟

- أمريكا

بكت أمى بحرقة يوما كاملا قبل سفر أخى إلى بلاد العرب وقالت إنها تكره ألا يحضر واحد من أبنائها أو أحفادها لحظة مفارقتها الحياة، قلت لنفسى ما أزعج الحب الغريزى حين يتجاوز حدود طاقة احتماله، وقالت ماريا لهانسون بصدق شديد وبصوت شرقى مستسلم للقضاء:

- أتمنى لك حظا طيبا

تعرف أمى - وأنا لا أعرف لأن أخى لم يخبرنى - ماذا يعمل أخى على وجه التحديد فى بلاد العرب، كم يكسب

وأين يسكن وماذا يتعلم أولاده هناك وربما متى يعاشر زوجته.. أنا لا أفهمكم أيها السويديون.. لابد أن أسأله:

ـ ما سبب هجرتك وماذا ستعمل هناك؟

ـ هذا من شأنى وحدى

كدت أبول على نفسى من شدة الحرج وحمدت الله أن ماريا لم تكن معنا فى هذه اللحظة فقد كانت تنسق الزهور فى الصالة وتغنى بمرح طبيعى وهى التى علمت منذ دقائق باعتزام ابنها الهجرة.

علمتنى أمى أن يحترم الصغير الكبير فكيف يخاطبنى هذا الوغد بهذا الأسلوب الوقح؟!.. لن أستسلم للحيرة.. سأظل أحاول أن أفهمكم مهما كلفنى ذلك.

ـ أنا أعرف أنه من شأنك؛ لكنى أسألك لمجرد التسلية بالكلام

ـ ليس الكلام للتسلية، وعندما أتكلم فإنى أعنى بالضرورة شيئًا محددا، أما إذا أردت التسلية فعندى الموسيقا والكتاب والسينما والمسرح.

لعنة الله عليك يا أخى وعلى أبيك وعلى أجـدادك أجمعين.. إن أكثر ما يغيظنى منك هو ابتسامتك اللطيفة المصاحبة لقنابلك اللفظية الفتاكة!

لابد لى من سرعة مغادرة هذا المنزل قبل أن ينفجر شريان برأسى. جاءت ماريا وقالت له وهى تربت على شعره الحريرى المنسدل على رقبته كشعر فتاة:

- ما رأيك أن نتناول العشاء معا فى مطعم قريب؟

- شكرا يا ماريا.. سوف تحضر صديقتى ونتناول العشاء معا بالمنزل

قالت ضاحكة

- إذن فنحن ضيفان ثقيلان!

ستكونان هكذا بالفعل لو بقيتما معى أكثر من ساعة

وفى طريق العودة كدت أفقد صوابى واتزانى عندما قالت لى ماريا بسعادة بالغة.

- أرأيت كم كان هانسون لطيفا معنا؟!

* * *

«الكاتب والفنان»

فى سفارة السويد بالقاهرة حين علموا باهتماماتى الثقافية والأدبية حدثونى عن كاتب شهير يدعو آندرز بروب وأعطونى رقم تليفونه.

لم أوفق فى الاتصال به لولا أن حصل كارل على رقمه السرى وجاءنى بالمقر ليفاجئنى بهذا النبأ. كان الوقت متأخرا فسألته.

- لماذا لم يذهب الملك إلى بيته؟ - هل أغضبته الملكة فهجرها؟!

يوم أسميته «الملك» لتطابق اسمه مع اسم ملك السويد

أسمانى «رئيس الوزراء» أو النائب وصرنا نتبادل اللقبين فى اعتياد.

- أبدًا.. سأبيت معكم الليلة توفيرًا للجازولين خاصة وأن الملكة ستبيت خارج المنزل. وتظل أعمدة النور فى شوارع مصر مضاءة طول النهار على الرغم من سطوع الشمس فى إصرار لا يلين من موظفى البلدية المتخمين بالغباء والبلادة وكثرة السب فى الحكومة والشكوى من انخفاض الأجور، ويجول بخاطرى مثل عامى يسخر من رجل أفلس جيبه وتعرت مؤخرته وراح يسأل الغادى والرائح عن الطريق إلى الخمارة.

دعانى آندرز لزيارته قائلا إننى سأعرفه قبل أن أراه، وأضاف أنه سينتظرنى فى الثانية عشرة ظهرا يوم وصولنا جوتنبرج على باب الفندق بعربة خضراء شديدة القذارة!

وقفت أمام النافذة أرقب مجون الشباب فى الشارع العريض المقابل للفندق وهم يعربدون بدراجاتهم البخارية وشرائطهم التى تذيع أغان صارخة وزجاجات البيرة التى

يلقـون بهـا فى كل مكان. كـان يوم عـيـد عندهم لا أذكـر مناسبته.

شـردت فى غيـبوبة جـميلة من زمـانى ولم أبـرح مكانى، وإذا بالقلب يرقص طربا لحلم يداعب أذنى.. أم كلثوم تغنى «حبـيب قلبى وافـانى فى مـيـعـاده».. صـوتهـا يطغى على ضجيج الشارع كله منبعثا من تحت الفندق مباشرة.

مـا أروع تحيـتـه ومـا أجمل استـقـبـاله لى قـبل أن يرى أحـدنا الآخـر. اقـشعـر بدنى من شـدة الصـدمـة وداهـمنى الحنين إلى وطنى وليالى الجـمـعـة من كل شهـر حين يرتفع سـعـر الحشيش وتتوقف الحيـاة فى أرجاء مصـر ليستمع الشعب بطوائفه كافة إلى معشوقته المعجزة وهى تشدو بأغانى الحب.

عمـلاق فى الأربعينيات يحمل قلب طفل. فـوضـوى فى انتقاء ملابسه وارتدائها وفى استرسـال شعر رأسه وذقنه. حيانى بحـرارة ودعانى لركوب عـربته الخضـراء. كان تراب قليل يحف بجوانبها السفلية.

- هل تعرف لماذا أترك هذا التراب ولا أنظفه أبدا؟

- لا.

- حتى أقول لمن يسألنى من بوليس البلدية «لا شأن لك.. إنها عربتى».

استبعدت أن يكون بعقله خلل، فالأرجح أن لأهل الرفاهية الزائدة دلال خاص، لهذا فإن آندرز حين يبحث عن قضية خطيرة حتى يستمتع بانفعال الغضب فإنه لا يجد سوى قذارة حافة عربته ليخلق منها مشكلة مع رجل البوليس!!.. اللهم لا حسد وسبحانك يا موزع الحظوظ والأرزاق.

حين لاحظ شرودى، وافتقار ابتسامتى إلى الصدق قال لى:

- لا تعجب فإن السويدى يحب عربته أكثر من زوجته: إنى لا أطيق البقاء فى هذه البلاد أكثر من أشهر الصيف الثلاثة.

- وأين تعيش بقية العام؟

- أطوف بآسيا وأفريقيا حتى أشعر بآدميتى فأكتب أعمالاً جيدة.

فى طريقنا إلى المطعم الأنيق الذى اصطحبنى إليه شرحت له معانى كلمات أغنية أم كلثوم. لفت نظرى أن مانشيت الجريدة الصباحية الرئيسى يعلن وفاة سارتر.

تعالت ضحكاته فى أرجاء المطعم وهو يداعب المضيفة منتهزًا فرصة عبور طفل صغير أمام المائدة:

- ألا تحبين أن تنجبى منى ولدا جميلا كهذا؟!

يتفننون فى ادخال البهجة إلى أنفهسم بلا عائق. أهى رفاهية اقتصادية أم سياسية أم ماذا؟!.. ومن نكون نحن أبناء العالم الثالث قياسا إلى هذا النعيم الذى يرتعون فيه عن جدارة واستحقاق؟!

اصطحبنى بعد ذلك إلى منزله.. المكتبة مبعثرة بها الكتب والجرائد الملقاة فى كل مكان بلا ترتيب، تتخللها زجاجات البيرة والأكواب الفارغة.

كان شبيها بالملك فاروق حين خلع قميصه كاشفا عن غابة من شعر إبرى كثيف على صدره الضخم. صافحتنى زوجته كرستينا الحاصلة على الدكتوراه فى اللغة العربية نحيفة رقيقة كنسمة ربيع تهف على استحياء. ذكرتنى بفيروز ذات الصوت الملائكى وهى تتحدث العربية بصوت خفيض معبر.. وأتعجب كيف تتوافق طباعها الملائكية الوديعة مع ذلك الوحش الكاسر الذى لا يكف عن شرب الخمر والصياح والضحك.

شعر الخبيث - وكل الكتاب خبثاء - بما يمور فى ذهنى فقال ساخرا:

- هل رأيت كم هى رقيقة. إنها تحبنى على الرغم من أنها تعلم عنى شيئين تمقتهما تماما.

- وما هذان الشيئان؟

- الأول أننى أضاجع نساء العالم فى كل بلد أزورها، والثانى أنى لم أكن أزور أمى إلا مرة واحدة كل عام.

تبدو كريستينا فى صمتها الجميل وكأنه يتحدث عن امرأة غيرها.. يحضر زجاجة نبيذ «سيدى إبراهيم» جلبها معه من الجزائر.. يضعها أمامى قائلا بجدية ووقار:

- لا تخف من النار.. فهذا نبيذ عربى إسلامى.

ثم أدار شريطا غنائيا لمطرب عربى اسمه (أبو حرية) لم أفهم من كلماته إلا القليل.

- إن زوجتى الرقيقة تترجم رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ.

اقتحم سعادتى بالنبأ هامسا فى طفولة :

- هل تريد أن تسمع سرا خطيرا لن يعرفه رجل فى مصر غيرك؟

- طبعا.

- سيكون نجيب محفوظ أول كاتب عربى يحصل على جائزة نوبل.

وتتعجب كريستينا من الصعوبات والعراقيل التى تواجهها الفتاة فى مصر لتلتقى بفتاها فى الرواية، وتندهش من السدود التى وضعها العرف الاجتماعى عندنا بين الولد والبنت. لكنها لا تشير فى حديثها إلى الحلال والحرام. آه لو تعلم بحالنا!!

خجلت أن أسأل آندرز عن مصدره حول معلومة نجيب محفوظ ونوبل، وإنما سألته عن رأيه فى كتاب مصر.

- حين التقيت بكبار كتابكم فى مصر كان كل منهم لا يتحدث إلا عن نفسه باعتباره الكاتب الأوحد.

لم أدر ماذا أقول فوضعت خياشيمى فى رأسى وغصت فى محيط من الخجل. بعد قليل حضر صديقه الكاتب الصحافى.

- أعرفك بصديقى چوناس .. شريكى الحميم فى كراهية هذه البلاد.

جمعت بيننا قوة جذب سريعة خلال ثرثرة الشراب الذى لم يتوقف.. يتحدث چوناس عن أشياء متناقضة لا رابط

بينها متخللا حديثه بسباب بذئ لكل شىء. تتحرك رقبته فى اتجاه واحد وتكاد ابتسامته الساخرة العابثة تقتلنى ضحكا حين يسهب فى وصف كراهيته الشديدة للرئيس الأوغندى عيدى أمين آكل الأطفال، أو حين يتحدث عن الانقلابات العسكرية فى دول أفريقيا والمرهون نجاحها بالفوز فى سباق الوصول إلى ميكروفون إذاعة العاصمة.

- والآن يا عزيزى المصرى المثقف تعال أطلعك على فننا التشكيلى السخيف!

اصطحبنا إلى منزل قريب وقد أمسك ابنته الصغرى بيمناه. على باب المرسم قدمنى إلى صديقه. فنان يتقاطر من أنفه حزن مقدس.

بمجرد أن دخلنا هرعت الصغيرة إلى غرفة يبدو أنها تعرفها جيدا. أما آندرز فقد عانق زوجة الرسام بحرارة تبعه چوناس بحرارة أشد.

قادنى الرسام إلى صومعته. صور فوتوغرافية مكبرة عديدة لامرأة بعينها فى أوضاع عارية متنوعة. يسقط منى

قلبى فلا أعثر عليه. هذه المرأة العارية هى زوجته. ما أتعسنى حين أدعى التماسك وأنا مهلهل. وما أبرع أن أنجح فى تأليف جملة أقولها لهذه الزوجة لأخفى ارتباكى ورزقى على الله:

- إن جسمك جميل جدا.

هناك مثل شعبى يقول «أول ما شطح نطح».. وانتظر الطوفان فلا قطرة من ماء وإنما ضحكة طبيعية ورد عجيب:

- هذا الرجل يرهقنى كثيرا.. يستغلنى كموديل ولا يدفع لى شيئا.. ألا يكفى أننى أحتمل المعيشة معه كزوجة؟!

مفتاح فهمى لهؤلاء الناس مرتبط بقدرتى على فهم طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة عندهم، وهذا ما أجتهد فيه بنجاح.

فى غرفة أخرى أرانى كيف تحولت الصور الفوتوغرافية إلى لوحات تجريدية، رسمها هذا الرسام الساكن كالموت، لا تكاد تمت بصلة إلى الأصل الفوتوغرافى.

وعندمـا غـادرنا المنزل فـوجئت بزوجـة الرسـام تجـرى مناديـة كى تلحق بنا قبل أن نعبر الشـارع ومعها ابنة آندرز التى نسيها عن غير قصد!

* * *

«لحظة إفضاء»

ما أتعس أبناء العالم الثالث حين ينحصر حديثهم فى النصف الأسفل من الإنسان.. لا نصيب فى وليمة البؤساء لأينشتين، وإنما يفوز ماركس وفرويد بنصيب الأسد منها. الحديث فقط عن الطعام والشراب والجنس، ويقول المثل الشعبى المصرى «الجوعان يحلم بسوق الخبز».. ويلهث أبناء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى سباق وهمى يتجسس فيه كل على الآخر حول مدى نجاحه فى اصطياد فتاة بيضاء يضاجعها..

لم يشفع لى ترفعى عن الخوض معهم فى نزولهم أن أنجو من مطاردتهم، ولم ينجح كبريائى ـ الذى وصفته

هيلدا بالعنصرية - فى الإفلات من تساؤلاتهم الملحة حول نجاحى فى هذا الأمر أو فشلى.. وكان لابد أن أكذب حتى أستريح!

حتى آندرز سألنى:

- ما أخبار الفتيات؟!

وكأنها فرصة العمر كى أستلقى مسترخيا أمام طبيب نفسانى أسلمه أسرارى. قلت له وكلى طمأنينة لقسم أبوقراط أسرد نقائصى وسقطاتى بشجاعة للمرة الأولى فى حياتى:.

- إن علاقاتى بالمرأة كانت دائما مبتورة. بدايات لا تكتمل حتى النهاية. إنى أحب المرأة حبا رومانسيا مفرطا لا يلبث أن يتبخر حين تلفحه نسمة من رياح الواقع.

لقد ظللت أحب امرأة حتى عرفت زوجها فاختفيت من حياتها وكأنى لم أعرفها من قبل. كانت عيناها الحوراوان تزدادان احورارًا حين أصل بها إلى قمة الانتشاء، وكان هذا يثير جنونى. لقد علمت الطالبة المثالية على دفعتنا

بالجامعة كيف تهتم بأنوثتها وتخلع نظارتها وقميصها ولا تدع تحصيل العلم يفقدها جوهر حياتها ومبرر وجودها. ردت لى الجميل أضعافًا مضاعفة من المتعة التى لم أعرفها مع ذوات التجربة والخبرة من بنات حواء فى ميدان الحب.

سكرتيرة مدير الشركة كانت تطلعنى على أدق أسرار العمل اليومية، وكنت أدربها فى المقابل على الوسائل المثلى للإنجاب من زوجها الخجول، غير أنها لم تعترف بفضلى بعد أن أنجبت طفلا جميلا، إذ امتنعت عنى قائلة فى وقار:

ـ هذا حرام!

والكاتبة الجميلة التى سال لعاب المثقفين أمامها فتوددوا إليها بالممكن والمستحيل، صفعتنى على وجهى لحظة أن تجردت أمامى من جلدها ولحمها وعظمها فتصنعت الثبات.

ولما انغرز منقارى فى باطن الأرض وأنشبت مخالبى فى لحم الحياة، كان لا بد أن أعترف لنفسى بأننى رجل

كـذاب.. أهيم شـوقـا بإرادتى وبغـيـر إرادتى فى أحـلام اليقظة، وحين تدق ساعة الفعل أقف أمـام نفسى عـاريا أرتجف فى رعب، أشرب نزيف قلبى ولا أفعل شيئا.

إن مـا رويته لك من مـغـامـرات مـثـيـرة فى عـالم المرأة تهـريف لا وجـود له إلا فى أوهامى المريضـة التى أبذل عمرى لتدمير أعراضها القاتلة.. يا سيدى أنا لم أمارس الحب حـتى هذه اللحظة إلا مع زوجـتى بحكم العـقـد الشرعى الذى يلزمنى بذلك!

انفجر آندرز فى الضحك طويلا، ثم قال لى بإشفاق:

- إنك لمسكين أيها الملاك الطاهر رغم أنفه!

فـتح زجـاجـة جـديدة من الخـمـر وقـد بدت عـلامـات التفكير الجاد على وجهه.. صب كأسين وقال بهدوء:

- أكاد أجزم أن التـخلف الاقتـصادى للأمم يؤثر بشدة على صحة العواطف الإنسانية لشعوبها.. ما رأيك؟

- إن صح هذا فكيف تفسـر لى زواج معظم رجـالكم من نساء فى عمر أمهاتهن أو أقل قليلا.

ظاهرة لم تغب عن ملاحظتى الدقيقة لهذا المجتمع، وإنى لم أنس أبدا تلك النظرة الحزينة القابعة فى عينى الرسام. كانت زوجته الجميلة تكبره بما لا يقل عن عشر أعوام.

نظر إلى آندرز بإعجاب شديد وكأنه يكتشف تلك الظاهرة للمرة الأولى، ثم قال:

ـ لاشك أنه التعويض المطلوب عن حنان الأم المفتقد فى الطفولة.

للمأساة وجهان، فأم الشرق تفنى فى أبنائها فتعطل نموهم العاطفى وأم الغرب لا تنسى نفسها فتعطب نمو أبنائها النفسى.. نفس التناقض الذى سبق لى أن رصدته فى وجهى الحياء عند نساء الشرق ونساء الغرب.

قال آندرز ضاحكا:

ـ أكتب عن أمك قصة وسوف أوصى كريستينا بترجمتها إلى السويدية.

ثم أطرق حزينا وهو يقول:

ـ لقد أحببت أمى أكثر مما تحبون ـ أنتم الشرقيون ـ أمهاتكم، وعلى الرغم من ذلك فقد تركتها تموت وحيدة فى ملجأ للمسنين بالنرويج.

* * *

«الحياء»

حين انتقلنا إلى ستوكهولم كانت هيلدا مرشدتنا، وكانت تقيم معنا فى كل فندق ننزل به وتلبى طلباتنا كافة ولو لم تكن فى نطاق العمل.

لكن هيلدا تقدس وقت راحتها الخاص إذ تنسلخ تماما عن المجموعة ولا تعطى لأحد فرصة ضئيلة ولو لمجرد الحوار البرئ معها. وعلى الرغم من شخصيتها الفولاذية إلا أن طابع الحياء يغلب عليها بصورة ملفتة أثارتنى كثيرا وجعلتنى أتطلع إليها بشغف شديد.

دفعتنى موروثاتى الشرقية إلى اقتحام عالمها الخاص وعلى الرغم من وعيى بأن ما سأفعله يعد تطفلا وعدوانا

على حريتها الخاصة. آه من هذا الفضول الذى سوف يقتلنى يوما .. كان السؤال هل تتصرف هيلدا بهذا الأسلوب بدافع عنصرى أصيل أم أنها تقتنص فرصة حقها فى الراحة للهرب من عيون المتخلفين الجائعة إلى لحمها، أم أن المسألة أبسط من ذلك بكثير لكنى لا أفهم شيئا؟!

ويوما اخترت اللحظة المناسبة وأسمعتها نكتة مصرية تسخر من العنصريين جعلتها تدمع من الضحك، لكنها فاجأتنى بتعقيبها على النكتة قائلة:

- يا مستر إيجيبت أنت أكثر عنصرية منى دون أن تدرى، وربما كنت تدرى لكنك لا تريد أن تعترف بذلك.

- كيف تقولين هذا؟

- إنى أراقبك فأرى بعينى كيف تعامل زملاءك من ارتفاع عال جدا.

- إنه ليس تعاليا، بل نفورا من همجيتهم أمام الطعام والشراب والمرأة.

- وربما كان شعورًا خفيا بانتمائك إلى حضارة أرقى وأقدم.

- أيا كان الأمر.. هل أنت سعيدة بالعمل معنا؟

- العمل نفسه رائع أما الأشخاص.. هف!!

- فكيف تفسرين إذن تلك الابتسامة الخجلى التى لا تفارق وجهك خلال فترات العمل؟

- ابتسامة عمل.

دون أن أدرى وجدت نفسى أقول بلا تردد:

- هل تقبلين منى دعوة للعشاء هذه الليلة؟

تفجر بداخلى بركان يغلى بالخوف والقلق.. ما أتعسنى لو رفضت!

فكرت قليلا ثم قالت ببساطة تتربع على عرش حيائها:

- لا مانع.. وأشكرك كثيرا.

هاجمتنى ظنون أجدادى وسير ملوكى وتاريخ أنبيائى بسلاسل يعرفها أبناء وطنى جيدا فقيدتنى من لسانى وكنت على وشك أن أسألها بكل ما أوتيت من غباء:

- لماذا وافقت بهذه السهولة على دعوتى؟!

لكن الكارثة - لحسن حظى - لم تقع إذ منعتنى قوة غامضة عن فتح فمى للكلام.

كلما أمعنت النظر فى عينى هيلدا استبدت بى الحيرة وأنا أذكر أقاصيص «حمدى» ذلك الملعون الذى سبقنى إلى نفس البعثة فى العام الماضى. أتعجب من قدرته الفائقة على الكذب وخياله الذى لا حد لاتساعه وهويصف لى مغامراته التى لم تتقطع يوما مع عشرات السويديات اللاتى لا يعرفن شيئا اسمه الحياء وهن يمارسن الجنس معه ومع غيره بكل يسر وسهولة مثلما نقزقز نحن اللب فى مصر ونحن نشاهد فيلما فى التليفزيون.

وأتساءل فى دهشة أهذه الحسناء الرقيقة المهذبة المثقفة لا تعرف الحياء؟.. أم أن حمدى المسكين هو الذى لم تكن لديه القدرة على التمييز بين حياء خبيث مغلف بالبراءة وحياء حقيقى يحجب من خلفه ثقة وبساطة واعتزازا.

إنى أرى الأنوثة تتفجر من حياء هيلدا، وما قيمة امرأة فى دنيا الرجال حين ينعدم حياؤها المثير؟!

أما حين تشق «أم قطوش» الإسكندرانية جلبابها فى منتصف الزقاق وهى تولول شبه عارية على زوجها قتيل الفقر والمرض ومن حولها سبعة أولاد بلا عائل، أو حين تتكدس ثلاث عائلات فى شقة واحدة ذات دورة مياه مشتركة وينام الجميع مرصوصين على الأرض رجالاً ونساء وأطفالا وطعاما وشرابا ومضاجعة ومشاجرة فما معنى الحياء هنا وماجدواه؟.. وكيف يدهشنى انعدامه فى ساحة الفقر المدقع إن أدهشنى غموضه فى ساحة الرفاهية، فالنقيضان يبيحان ذلك، وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟!.. فحين يتفاقم الفقر يصبح الحياء رفاهية لا يحق للفقراء ممارستها أما الحياء عند أهل الرفاهية فقد يكون حقيقيا غير زائف ولا يفترض أن يكون غير ذلك إلا فى أقصى حالات الثراء. فى المطعم كانت مراسيم الطعام طويلة وبطيئة للغاية، يتخللها غناء جماعى متقطع ما بين الصنف والآخر، وبينما كنت غارقا فى دهشتى الساخرة التى استبدت بى منذ وطئت قدماى أرض هؤلاء القوم

الطيبين، إذا بثلاثة من المبعوثين لا تجمع بينهم رابطة من أى نوع يدخلون المطعم.

ما أن رأونا حتى فرضوا أنفسهم على مجلسنا وأطالوا فى الجلوس مما أثار حفيظتى، أما هيلدا فقد أخفت مشاعرها خلف ابتسامة جليدية ناصعة، وفى دهشة بريئة لا تخلو من فكرة سألت السعودى سليمان الجريوع:

- لماذا لم تبت معنا فى الفندق ليلة الأمس؟

أجابها بغرور ذى جرس:

- لم يعجبنى.. فأنا لا أبيت إلا فى فنادق الخمسة نجوم.

قال الكوبى فيكتور فياندور بغل عجزت الابتسامة الصفراء عن مواراته:

- لقد ظلم الله العالم بأن خص هؤلاء العرب بالبترول.

وعلق الفلسطينى يوسف الدباغ بكلمة واحدة:

- سفاهة!!

حين بدأ العالم الثالث فى إظهار مواهبه الفذة اعتذرت لى هيلدا عن ضرورة الانصراف لمقابلة مدير الشركة التى سنزورها فى اليوم التالى لترتيب التفاصيل النهائية للزيارة معه.

* * *

«الوحدة»

دعانى مصور سويدى يدعى «برونو» إلى العشاء بملهى يقع فى مواجهة الفندق الذى أنزله مع مجموعة من المبعوثين. طلبت منه أن يصحبنى أولا إلى دار عرض سينمائى متخصصة فى أفلام الجنس. عندما سألنى عن السبب فى هذا الاختيار قلت له بصدق:

- إن مثل هذه الأفلام ممنوعة فى بلادنا وإن دافعى هو الفضول فحسب..

لم أستطع أن أواصل مشاهدة الفيلم. أصابنى تقزز شديد وكدت أخرج ما بأمعائى حين شاهدت رجلا يلعق

بلسانه مؤخرة امرأة!.. خيل إلى أننى لو واصلت المشاهدة فسوف أتحول إلى كلب. استأذنته فى الانصراف على أن نلتقى بالملهى، لكنه قام معى بحياد يخلو تماما من أى انفعال وعدنا إلى الملهى.

على المائدة قال لى إنه يكسب ما يعادل ربع مليون كراون كل ثلاثة أشهر وإنه يعانى بمرارة من حسد الآخرين الذين يتهمهم بالمادية الشديدة ويصف أجسامهم بأنها تخلو من القلوب، ويكره حكومته بشدة لأنها تستقطع ثمانين بالمائة من دخله كضريبة.

أنفق ببذخ وراقص عدة فتيات خلال فترة تناوله العشاء. كلما عاد إلى المائدة همس إلىّ ببعض العبارات كما لو كنت مستودعا جديدا لأسراره العاطفية وآرائه السياسية عثر عليه فى الطريق. فمرة يقول:

- من دواعى فرحتى الشديدة أن ألتقى بشرقى مثلك فإنى أبحث عما تسمونه بالوجدانيات التى نفتقدها هنا.

ومرة يقول:

ـ إحذروا التضليل الإعلامى الأمريكى الذى يسعى إلى تعزيز الوضع الراهن من خلال آلاف المحطات الإذاعية ومئات المحطات التليفزيونية والصحف والدوريات والأفلام والكتب والمسلسلات.. إنهم قوم أفاقون مغامرون.

ومرة أخرى يقول:

ـ لم أراقص هذه الشمطاء لأنها تشبه زوجتى السابقة.. إن الشعور بالوحدة يكاد يدمر حياتى.

أذهلنى ذلك المصور بحيويته الشديدة التى لم ألمسها فى الكثير من السويديين الذين التقيت بهم، ولقد وصل انبهارى به إلى الذروة حين انتهى من الرقص والطعام وجلس أمامى يدخن سيجارة وهو يحدثنى عن تصوره لعالم جديد يسوده إنسان راقٍ يتمتع بالصفاء والنقاء والانسجام والمرح، وتشع روحه بالنورِ والبهجة والجمال!!. إنسان يعشق الموسيقا ويعيش فى أى مكان على الأرض بلا حواجز دينية أو عرقية أو قومية.

حاولت أن أتذكر عدد المليارات المدانة بها مصر للعالم الأول فلم أستطع ورأيت نفسى أهيم فى الصحراء بصحبة

إبنى باسم وابنتى بستان. خيل إلى أن هذا الرجل سوف ينتحر بعد عدة أشهر على الأكثر. كانت كلماته تتساقط على روحى كقطرات من نور ذهبى يشد من أزرى ويحثنى على التشبث بذلك الوصل الإنسانى المباغت بين روحين شاردتين، محاولا التوصل إلى السر الحقيقى لألمه الدفين.

سألته عمن يحبونه لا عمن يحسدونه:

- حدثنى عن زوجتك.. عن أبنائك...

- عن أمك عن إخوتك..

كانت خيبة أملى عظيمة إذ شرد عنى طويلا وهام فجأة فى فراغ بعيد.. هب واقفا واعتذر بأدب ثم انصرف فى هدوء بعد أن دفع الفاتورة!!

متى سأستطيع فهم هؤلاء الناس؟!.. ما معنى هذا التجهم الحزين البارد الذى يكسو وجوهكم دائما، وحتى عندما يختفى بفعل الخمر فإنه لا يلبث أن يظهر من جديد؟!

* * *

«الذى أكله الذئب»

للزمن رائحة غامضة أعشقها.. تفوح بالشجن.. تستوقف الماضى بأفراحه التى ولت وجروحه التى تركت علاماتها على جدران القلب وبريق العينين.. ما أجمل القديم برسوخه عبر السنوات شاهدًا على أحداث مضت وأحباء غابوا عن الحياة!

تسللت من بين الرفاق.. وحدى إلى مترو الأنفاق تشدنى تلك الرائحة المخلدة إلى «جاملاستان» أو ستوكهولم القديمة، باحثا عن الأزقة الضيقة ذات المبانى العتيقة التى يسكنها التاريخ متأبيا أن يغير سكنه.. قطع البلاط الأسلفتى الصغيرة

السوداء التى رصفت بها طرقات المدينة منذ مئات السنين.. تعود بى إلى أزقة بوابة مورو وزاوية الأعرج والأنفوشى ورأس التين والسيالة وحارة الموازينى بالاسكندرية.

صباح الجمعة العظيمة وأجراس الفصح تجلجل فى الشوارع الضيقة.. تغازل صمت الشمال الوحشى الذى ما عاد صمتًا مع أنفاس الربيع المضمخة بالنشوة.. أشم روائح مصر ولبنان وفلسطين وسورية وتروى لى جدتى فى صباى حكايا العناقيد والسنابل وجداول الماء والجنية الطيبة وأنهل فى شبابى من ينابيع الشعر و«أكره أن أحب مثل الناس.. وأكره أن أكتب مثل الناس.. وأود لو كان فمى كنيسة وأحرفى أجراس»(*).

وآه يا قلب حين تتوجع من أقدارك العربية التى استباحها ثلاثة من آلهة الإغريق وأبوا أن يفارقوها إلى يوم الدين.. ولو أن فلكان ومارس وبلوتو(**) قد بذلوا دماءهم

(*) نزار قبانى.
(**) آلهة النار والحرب والموت.

المقدسة للانتقام منا لما استطاعوا مثلما استطعنا نحن العرب أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للعالمين.. ثم يقول السادات إن اتفاقية كامب ديفيد سوف تجعلنا نتفرغ لصنع الرخاء.

غصت فى لجة القدم وذبت بكامل رغبتى فى أغوار الزمان حتى أننى لم أشعر بذاتى إلا فى ميدان أورفيوس.

جلست إلى نافورة التمثال الجميل.. إله الموسيقا الإغريقى الذى سحر بقيثارته قلوب العذارى والعاشقين.. من حوله ترقص الملائكة ويشيع فى الكون نغم بديع.. تشدنى إلى مصدره قوة حب للحياة جارفة، فأجدنى فى قلب نفسى وكأننى قد سحرت إلى نبع للموسيقا والحب والجمال.

التقيت بعجوز يجلس حزينا بجوار النافورة.. يتطلع إلىّ بشغف شديد وكأنه يرجونى أن أكلمه. اقتربت منه وحييته فدعانى للجلوس معبرا عن امتنانه القوى لشىء لست أعرفه.

ما أن تعارفنا حتى بدأ يشكو لى بحرقة من وحدته بعد وفاة زوجته وكأنه يعرفنى منذ زمن طويل. سألته بإشفاق ودهشة:

- أليس لديك أولاد أو أصدقاء؟..

أجاب بنبرات مترعة بالشجن.

- نعم ليس لى أولاد أو أصدقاء، ولكن لدى كلبين.

- كلبين؟!

- نعم.

لم يكن مظهره يوحى باليسر.. ترددت فى سؤاله إن كان بحاجة إلى بعض المال. فاجأنى بسؤاله:

- هل زرت جاملاستان؟

- نعم ولقد عشقتها.

قال بخبرة العمر المتخفية بين ثنايا جلده وتحت جفون عينيه الحزينتين؟

- هكذا توقعت منذ نظرتى الأولى إليك.

- كيف؟

- إن روحك التى انجذبت إلى بحب لتتشلنى من وحدتى لا تصلح للحياة هنا.

- لماذا؟

- كنت أود أن أفسر لك هذا الأمر لولا أن أكلنى ذئب.

تلفت من حولى فى خوف ودهشة وخيل إلى أننى وقعت بين براثن معتوه.. آن الآوان كى أنسلخ منه لأواصل جولتى فى عاصمة السويد الرائعة وحيدا بلا رفاق ولا مجانين.. فوجئت به ينفجر فى ضحك يتخلله سعال الشيخوخة الرقيق:

- ماذا بك؟.. هل خفت منى أم ظننتنى مجنونًا؟

- العفو يا سيدى.

- لا تندهش فكلنا فى هذه البلاد قد أكلنا ذئب الرخاء.

- ولكنك حى أمامى.

ـ أنا حى أمامك فقط، أو حين أتصل برقم هاتف لا أعرف صاحبه لمجرد أن أسمع صوت آدمى.

لم أكن أتصور أبدا أن يجذبنى حديث هذا العجوز الممتع حتى الظهيرة، حين أصر على دعوتى للغداء، ولما حاولت التملص منه إشفاقا عليه قال بابتسامة ساخرة:

ـ لا تنزعج أيها المصرى الحنون، فبمقدورى أن أدعو كل سكان هذا الحى لتناول الغذاء على نفقتى.

ازدانت أزقة المدينة القديمة بالناس بعد أن كانت خالية فى الصباح فشعرت بطمأنينة بالغة للحاضر والمستقبل وأكد لى العجوز «هارتر» أن نبوءة السادات سوف تصدق وسوف يتحقق السلام يوما بين اليهود والعرب.

فاحت رائحة الطعام من المطاعم الصغيرة التى يمتلكها الجزائريون والمغاربة، وانطلقت الضحكات السعيدة الخافتة، فداعبت أنفى رائحة الشواء ممتزجة بعطور النساء وعبق النبيذ المعتق وسألت هارتر الذى كان يعمل مدرسا للتاريخ،:

- هل تكمن صفات التخلف البشرى فى العقل أم فى الروح؟

نظر إلى بإمعان شديد وقال بجدية:

- يا صديقى.. يجب أن تعلم أن اعتزازى بجنسيتى لا يختلف كثيرًا عن اعتزازى بكلبّى!

- لكنك لم تجبنى.

- بل أجبتك، ولكن يبدو أن رائحة الشواء قد أفقدتك عقلك!

* * *

«الجمال والموت»

كان لابد من العودة إلى مقر البعثة فى ماركاريد لاستئناف جولة جديدة من المحاضرات نعاود بعدها السفر إلى مدن جديدة للتعرف على مؤسساتها الصناعية.

القطار تحفة فنية متكاملة بما يحويه من آدميين وتسهيلات صنعوها بعقولهم وأيديهم لإمتاع أنفسهم وإدخال البهجة على قلوبهم. الكتب والمجلات فى أيدى غالبية المسافرين. الصمت هو الصفة السائدة، وإذا كان هناك حوار بين راكبين أو أكثر فإنه يدور فى همس وهدوء.

فى سفارة السويد بالقاهرة لمحت صورة معلقة لقطار أحمر اللون يخترق الغابات الشاسعة الخضراء، فتعلق قلبى بجمال اللوحة التى أبدعها الفنان الأعظم.. أنا الآن فى قلب هذا المجال أعيش فيه بجوارحى وأرتشف من حلاوته حتى الثمالة.

صفوف الأشجار العملاقة تطل فى إبداع عبقرى على الجانبين. بدأت الأوراق الخضراء تتسرب كالحلم بين نتف الثلج التى تكسوها والتى بدأت تستعد للرحيل بعد شتاء طويل.

الطبيعة كلها فى حالة عناق حار تفوح رائحته بأحلام الربيع وتتسكب نشوته على المخلوقات الكائنة فوق هذه الأرض الرائعة. سألت ماريا بحزن برىء:

ـ كيف تنتحرون وأنتم تعيشون فى هذا الجمال؟

ضحكت وفى عينيها علامات الفهم لأسباب حيرتى، ويبدو أن هذا السؤال الساذج قد طرح عليها من قبل. قالت كمن يشرح درسا لطالب محب للمعرفة:

- لا تصدق هذه الشائعة.

- كيف؟.. إن الإحصائيات التى..

قاطعتنى قائلة برفق.

- من فضلك لا تتحدث عن الإحصائيات فى غياب مستر كارل جوستاف.

- لماذا؟

- كارل هو الوحيد الذى يستطيع إفادتك فى هذا الأمر لأنه من هواة جمع الإحصائيات وتحليلها.

مهما فعل بى الانبهار بهذه الحضارة والإعجاب بهؤلاء الناس الذين يبدون أمامى سكان كوكب آخر، فإنى أجد نفسى من حين إلى آخر مشدودا بقوة سحرية إلى أرضى وعالمى فى مصر.. أذهب إلى بيت أمى ومأواها قبل الأخير راكبًا قطار «أبى قير» العجوز بزجاجه المهشم ومقاعده المتسخة التى يجد الأولاد متعة غريبة فى تمزيق كسائها الجلدى.. وهم يتقافزون كالقرود على الأرفف ويدوسون على المقاعد بأحذيتهم المتسخة، والباعة يقذفون على حجر

الجالسين باللبان والحلوى كما لو كانوا يجبرونهم على الشراء ثم يعودون لجمعها بعد فترة.

هذا القطار العجوز الصامد للزمن يتعطل عشرات المرات فى الطريق لأسباب لا يعرفها أحد، وعندما يتحرك فإنه ينافس السلحفاة فى تلكؤها وتصدر من أحشائه زمجرة مخيفة تتجاوز فى غلظتها وازعاجها أزيز صاروخ نووى ينطلق من عقاله متجها إلى القمر. أما المتزاحمون بداخله زحام الخلق يوم الحشر فلا يبدو أن شيئا مما ذكرته يزعجهم على الإطلاق.. فمعظمهم يأكلون بداخله ويشربون ويضحكون وغالبا ما تنشب المعارك بينهم صراعا على مقعد أو احتجاجا على تصادم عفوى، أما الكتاب أو الجريدة أو المجلة فلا مكان لأحدهم بالصلاة على حضرة الرسول. لا إله إلا هو جلت حكمته فى أن يكون هذا قطار السويد وذاك قطار أبى قير، وأن أكون أنا جالسا بالقطارين فى آن واحد ترهقنى ذلة المقارنة ويصهر الألم روحى المتهابطة إلى أسفل قرار.

فى ذلك المساء دعانا كارل جوستاف إلى العشاء فى بيته. ارتكب بحسن نية غلطة عمره التى تسببت له فى إحراج شديد أشك فى أنه قد شعر به من قبل منذ ولادته. ذلك أنه نظم أسلوب وضع الطعام - الذى كان فوق الكفاية - على طريقة البوفيه المفتوح.

اصطف الجمع فى طابور احتوى على الخمسة عشر مبعوثا وماريا وأسرة كارل وقليل من ضيوف الأسرة. كانت ماريا تقف من خلفى وعندما جاء دورى وجدت أن الأوانى قد أفرغت من محتوياتها عن آخرها. نظرت إلى الخلف فوجدت ما يقرب من أربعة أفراد فى انتظار دورهم لكنهم لم يجدوا شيئًا يأكلونه. كان كارل يرقب أطباقهم الفارغة فى هلع مثلما كان يرقب الأطباق الأخرى التى ملأها الباقون حتى نهايتها بشكل يدعو إلى الفزع والتقزز. سارع إلى زوجته التى تصرفت بلباقة فى بادئ الأمر حتى تحتوى الموقف. ثم ثارت ثورتها حين كانت تلقى بفائض طعام الآخرين إلى سلة المخلفات، إذ كان من المستحيل أن يلتهم

أحدهم كل ما وضعه من طعام فى طبقه مهما بلغت معاناته الجسمانية والنفسية من شدة الجوع.

وكان من الملفت للنظر أن أحدهم لم يشعر بما حدث، فقد كانوا يشربون ويضحكون فى بلاهة مزعجة.

على المائدة كان عجوز من أصدقاء كارل يتحدث بالمصادفة عن حوادث انتحار الآباء التى تزيد نسبتها على حوادث انتحار الأمهات. ذلك أنهم يعانون من الوحدة حين ينفصلون عن زوجاتهم لسبب أو لآخر، ثم ينصرف عنهم الأبناء إلى حياتهم المستقلة بعيدا عن الأبوين.

قال جاره « إن إدمان الآباء للخمر لتبديد الشعور بالوحدة أشد فظاعة من الانتحار، واللعنة على زوجتى وأولادى لو كانوا سببا فى فقدان حريتى وسعادتى».

اصطحبنى كارل إلى الدور العلوى بمنزله ومعنا ماريا. كان يعلم باهتماماتى الفنية والأدبية فراح يحدثنى عن كتاب السويد الحاصلين على جائزة نوبل ثم فتح باب غرفة

صغيرة غطيت جدرانها بعشرات اللوحات الفنية وطوانا جميعا صمت عميق.

بعد أن تأملت اللوحات التقت نظراتى بنظرات ماريا فجأة ففهمت أننى أريد أن أستكمل الحديث عن الانتحار فى حضور كارل. هزت رأسها دلالة على فهمها لما يعتمل بذهنى ثم خاطبته قليلا باللغة السويدية وأعقبت ذلك باعتذار لى.

لم يقل كارل شيئا فأبديت إعجابى الشديد باللوحات المرسومة. حينئذ قال لى بصوت يفيض حزنا لم أدرك معناه:

- لا تصدق ما يشاع أن نسبة الانتحار فى اسكندنافيا أعلى من نظيرتها فى سائر بلدان أوروبا. إن الأطباء الأوروبيين يسجلون كثيرا من حوادث الانتحار على أنها وفيات طبيعية، وذلك لأسباب دينية واجتماعية، فالمسيحية كما تعلم تحرم الانتحار، كما أن المنتحر يجلب العار لأسرته. أما إحصائياتنا فهى دقيقة وصادقة فى تعبيرها

عن الحقيقة، فمسألة الدين عندنا مسألة شخصية صرفة، لا علاقة لها بأى اعتبارات أخرى وهى أولا وأخيرا غير ذات أهمية. وأنا مسيحى كماتعلم ولكن الأسرة الملحدة لا تعتقد أن من ينتحر من أفرادها فسوف يدخل النار.

فى الردهة المقابلة كانت ابنة كارل جالسة مع صديقها الفنلندى يتبادلان القبل الساخنة على مرأى من الغادى والرائح دون أن يعبأ بهما أحد.. وعند خروجنا من غرفة اللوحات سألته عمن رسمها فأجابنى بهدوء قاتل:

- إنها ابنتى.

- تلك الجالسة مع صديقها؟!

- لا، إنها ابنتى الأخرى.

- وأين هى؟

أجاب بثقة شديدة وبلا تردد.

- لقد انتحرت للأسف!

أدركت سر صوته الحزين ولم أعرف ماذا أقول له فاعتذرت عن سؤالى السخيف لكنه قال بعينين لامعتين:

- لقد كانت فتاة مسيحية رائعة!

كان احترامى لصدقه أعمق من تأثرى بحزنه، فاجتهدت فى تغيير مجرى الحديث وساعدتنى ماريا برقتها على ذلك.

* * *

٤

«الرميتاه»

كنت - فى صبـاى - أتلمس الطريق إلى الغـرب كـأمل مستحيل من خلال القراءة عنه بمزيج من الفضول والمتعة والاستسلام لأحلام اليقظة. وكان سبيلى الأكثر حماسا لممارسة العشق عن بعد هو مراسلة «ڤيرينا نيلز» الطالبة الفنلندية ذات الرقبة الڤينوسية الغضة والوجه الأبيض ذى النمش والشعر الأحمر والعينين الزرقاوين. ألصق صورتها بمكتبى الصغير حتى لا تبعد عن عينى بينما أقرأ التاريخ أو أحل مسائل الرياضة أو أشرب الشاى أو أجتر حيرتى فى مغزى تعلقى المفاجئ بفتيات الحى، وارتباط ذلك بما

استجد على صوتى من خشونة وعلى عضلاتى من قوة.. وحين أمعن النظر فى وجه شقراء اسكندنافيا الحالمة أشعر أن القرب المحال منها هو عين الرضا ولب الحياة.

وكنت أجوس متلصصا فى حديقة قصر رأس التين لأتصيد سائحا حتى أبادله الحديث بالإنجليزية.. وأقرأ روايات الغرب وأقتل نفسى بحثا عن معانى كلماتها الصعبة بين صفحات القاموس.. ولكم تمنيت أن يعمل تحت إمرتى خادم من الجان ينقلنى قبل أن يرتد إلى طرفى إلى بلاد الجليد ويزوجنى من معشوقتى الشقراء فأنجب منها البنين الطوال العراض والبنات ذوات العيون الملونة والشعور الذهبية. وليقينى التام من استحالة رؤية فتاتى الملونة فقد اكتفيت بالحلم بها دون كلل فى اليقظة والمنام، فكيف أسافر إليها بينما يصلى أبى لله شكرًا حين يضمن لى ولإخوتى قوت يومين متتاليين؟!

فى الجامعة يبرق الأمل أمام عينى حين أرى بعض الزملاء الميسورين يسافرون فى إجازة الصيف إلى أوروبا

للعمل والسياحة. أترقب عودتهم مع بداية العام الدراسى الجديد أمطرهم بالأسئلة عما شاهدوه وسمعوه وفعلوه هناك، فيشتعل بى الشوق وأكاد أحترق لعجزى عن تحقيق حلمى الكبير. وألعن الفقر الذى يحول بينى وبينه فيحيله إلى سراب. وأحفظ عن ظهر قلب عبارة سيدنا الإمام على «لو كان الفقر رجلا لقتلته» رغم ثقتى الكاملة فى عجزى عن قتل نملة!

ولأن من يدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له فقد رشحتنى الشركة التى عملت بها ستة عشر عاما بعد التخرج فى الجامعة لبعثة علمية فى السويد.. وخلال دقائق معدودة علمتنى الدنيا أن المستحيل والممكن ما هما إلا دميتين صغيرتين تلهو بهما وقتما تشاء وكيف تشاء مع من تشاء!

هكذا أدركت أنه قدر لى أخيرا أن أرى بعينى وألمس بيدى معشوقة الصبا وفاتنة الغرب فيرينا خلال أيام قلائل.

وحين ينقلب المستحيل إلى واقع ويستحيل الحلم إلى حقيقة، فلا وقت حينئذ للدهشة - عجبا!! - ولا متسع لجنون الفرحة، وإنما هرولة هنا وهناك لإنجاز ورقة وإنهاء إجراءات.. بل إن رهبة عجيبة تستبد بى وكأننى عاجز عن مواجهة تيار السعادة الجارف الذى طغى فجأة على حياتى على الرغم من طول ترقبه وانتظاره.

بعثت إليها بخطاب أخبرها بوقوع المعجزة التى ظللنا نحلم بها معا منذ أن كانت طالبة حتى أصبحت مدرسة لعلم النفس بالجامعة وأنجبت جميلة تشبهها أسمتها ليلى.

أرسلت فى ردها الفورى أنها تنتظرنى وأسرتها فى مقرهم الصيفى(*) ووصفت لى مكانه جيدا وذكرت أرقام تليفوناتها جميعا فى البيت والعمل والمقر الصيفى. قالت إنها أعدت لى غرفة خاصة لأقيم بها حين أدبر الوقت الملائم للسفر إليها من السويد.

(*) على ما أذكر كان اسم الجزيرة «كوربو» وهى تقع بين فنلندة والسويد.

وسافرت وعشت أسابيع طويلة مع أهل السويد حائرا فى فهمهم محاولا بكل السبل أن أتواصل معهم متجاوزا العوائق والسدود التى وضعتها بينى وبينهم اختلافات لا حصر لها.

ويوم قررت السفر إلى فنلندة تذكرت تلك الليلة التى جمعت بين أعضاء البعثة وفنلندى وزوجته حين فوجئت به فى نهاية الحفل يسألنى بهدوء:

- هل تحب زوجتى؟!

أصابنى ذهول شديد.. حقا أننى تبادلت معها حديثا مرحا طول السهرة حول السلام بين الشعوب وألقيت عليها بعض النكات المصرية التى أدمعت عينيها من شدة الضحك، لكن.. ما معنى السؤال، وما الذى يمكن أن يترتب على إجابتى بالإيجاب لو وسوس لى الشيطان بذلك؟! إننى لم أفهم!.. ترى هل يسألنى زوج فيرنيا نفس السؤال؟.. وهل أتهرب من الإجابة مثلما فعلت مع الفنلندى الآخر، أم أقول نعم وأنا الذى ألقاها للمرة الأولى، فيقدمها لى قربانا

لإله الحب على فراش غرفتى الخاصة بمقره الصيفى؟! أم أنها تخاريف شرقية مبعثها الكبت والحرمان؟!

حين تلقيت النبأ فى الفندق كرهت الدنيا، وأدركت أنها كاذبة فى وعودها، ماهرة فى التلاعب بأقدار محبيها.. مراوغة لا تعرف الثبات على حال.

كنت أذرع غرفتى جيئة وذهابا حتى دق جرس الهاتف المرتقب!

- هالو سالم. إن وجودك فى السويد هو الحلم بعينه.

- هالو ڤيرينا. كنت أتمنى من صميم قلبى أن أراك.

- ولسوف ترانى فأنت على بعد ساعات قليلة منى بعد أن كنت على بعد آلاف الأميال.

- للأسف هناك اضراب لعمال العبارات ولن أتمكن من السفر بالفرى بوت.

- ولماذا لا تسافر بالطائرة؟

- لابد أن أسافر أولا إلى ستوكهولم ثم أستقل الطائرة منها وهذا يكلفنى كثيرا.

ـ أوه.. أنا آسفة جدا.. اقترض المبلغ وسأعطيه لك فور وصولك.

ـ لا أستطيع.

ـ أليس هناك حل؟!

ـ لست أدرى.

ـ إنه شىء يدعو للأسى ألا نلتقى بعد كل هذا العمر من المراسلة بينما لا يفصل بيننا الآن إلا بحر صغير!

ومنذ أن أغلقت السماعة وحتى لحظة كتابة هذه الأوراق، وحتى آخر العمر سيظل الممكن والمستحيل دميتين صغيرتين تلهو بهما الدنيا وقتما تشاء وكيفما تشاء مع من تشاء.. فهأنا ـ وقد تجاوزت الخمسين ـ لم تعد بى أدنى رغبة فى رؤية ڤيرينا حتى لو سافرت إلى فنلندة بمعجزة أخرى، وأغلب ظنى أنها هى الأخرى لم تعد مشتاقة إلى رؤياى ـ هذا إن كانت لا تزال تذكرنى حتى الآن ـ لو كانت على قيد الحياة.

* * *

«عيون لا تدمع»

تعجبت ديانا - التى كنت واثقا أنها ربة القمر - حين رأتنى أطير إلى مائدتها بلا وعى ولا سابق معرفة، وأرتشف من رحيق كلامها المعسول، لكنها لم تمانع بل أضافت على بنورها الفضى المتلألئ فغمرتنى بالبهجة والسرور.

وبدأت راقصة تتخلى عن ثيابها قطعة وراء قطعة على أنغام موسيقا صارخة وأضواء ملتهبة بالألوان الفاقعة المثيرة تضىء وتنطفىء بسرعة مزعجة.. لم أنظر إلى الراقصة كثيرا لا لأنى كنت عزوفا عن ذلك ولكن لأننى كنت مسحورا بضياء ديانا.

تريكنى سرعة إيقاع أهل السويد حتى فى لهوهم.. هناك انسجام طبيعى بين ما يفعلونه فى أنفسهم وما يفعلونه لأنفسهم. بالأمس زرت مصنعا ينتج مئات الأطنان من الورق كل يوم يديره عشرات من الأفراد طبقا لهيكل تنظيمى شديد الاختصار. والمصنع بأكمله يعمل بنظام الكمبيوتر والمراقبة عن بعد والتحكم الآلى.

لم أجد بالهيكل درجات للسعاة ووكلاء الوزارة ومديرى العموم ومديرى الإدارات أو غيرهم من العاطلين حاملى الشهادات الجامعية الهزيلة.. وإنما وجدت أعمالا محددة ذات أجور محددة لا يشغلها إلا من تخصص فى القيام بأعبائها على أعلى مستوى ممكن.

علا ضجيج الشباب وقد كادت الراقصة أن تخلع آخر قطعة، حين لمحت الدباغ يدخل الملهى وحيدا. لم أكن أتوقعه على الإطلاق. رأيت أمى وأمه فجأة وانتابنى ذعر شديد، فالأولى يعلو شخيرها الآن وهى نائمة فى مصر على فراشها، أما الثانية فقتلت إما فى غارة إسرائيلية على

مخيم فلسطينى وإما بيد ابنها كما صورت لى هواجسى من قبل.

غير أنى نجحت فى استقباله بابتسامة طيبة عندما مر أمامى، ودعوته للجلوس معى فى صحبة ربة القمر. تعجبت لتخليه عن تحفظه تجاهى لأول مرة. ميزانيتى تسمح بدعوته للشراب ورغبتى شديدة فى نسيان الأصل الذى انحدر أجدادى من صلبه.

شربنا بنهم شديد وانتفت الكلفة بيننا وقام الدباغ ليشهد الراقصة العارية ويساهم مع الشاب فى الصفير والصريخ.

واصلت حديثى مع ديانا عن مسلسل «جذور» التليفزيونى الأمريكى وكانت آخرحلقاته قد انتهت بالأمس.

قلت لها إننى كنت على وشك البكاء وأنا أرقب المشهد الختامى للحلقات بتلفزيون مصر فى العام الماضى لولا أن تمالكت نفسى.

فوجئت بها تصيح فى غضب جميل ممتزج بدهشة بريئة:

- ولماذا لم تبك؟.. ما جدوى أن تتمالك نفسك يا رجل؟!

لم أجرؤ أن أقول لها إن الرجل الشرقى ممنوع من البكاء العلنى، أما فى السر فليفعل بنفسه ما يشاء وإلا يعد رجلا ضعيفا كان من الأجدر به أن يكون امرأة!

واحتراما منى لجمالها المبهر دعوتها للمبيت معى ليلة بالفندق، واللعنة على الشيخ عبد السلام الذى أقسم يمينا مغلظة قبل سفرى بأننى لن أستطيع مضاجعة امرأة واحدة طول فترة غيابى عن مصر.

قالت بابتسامة طبيعية وبلا أدنى حرج، بل إنى لمست سعادة تطل من عينيها وهى تستمع إلى دعوتى:

- أنت إنسان لطيف ومثقف، وأنا أميل إليك فى الحقيقة، لكنى أعتذر عن عدم قبول دعوتك لأنى لست أنام إلا مع صديقى المخرج الذى حدثتك عنه.

نجحت تعاويذ الشيخ عبد السلام إذن وأعماله الغامضة فى وقف حالى على الرغم من آلاف الأميال التى تباعد بينى وبينه عليه اللعنة.. وانفجرت فى نوبة متصلة من الضحك.

فى بداية الأمر نظرت إلى ديانا بدهشة طفل ما كر ثم لم تلبث أن انفجرت هى الأخرى فى الضحك معى دون أن تسألنى السبب حتى دمعت عيناها ببريق رائع.

عاد الدباغ إلى المائدة وراح يفرط فى الشراب فبدأت أراجع نفسى حول عاقبة دعوتى إياه للشرب على نفقتى. وعندما حاولت ديانا أن تشاركه الحديث فوجئت به - مثلى - يقول بلهجة تلميذ يحاول تسميع مقطوعة إنشائية لمعلمه:

- إن المحافل الماسونية المنتشرة فى أرجاء العالم تعمل فى السر كقناع لأغراضنا، وأما الأمميون (غير اليهود) فما هم إلا قطيع من الغنم ونحن الذئاب فهل تعلمون ماذا الغنم عندما تدخل الذئاب الحظيرة؟

لم أشأ أن أفقد وده الجديد تجاهى فقلت مسايرا إياه:

- تجرى بالطبع.

كانت ديانا تنظر إلينا كمن يتسلى بلعبة غامضة، حين قال الدباغ ساخرا:

- أبدًا.. يقولون إنها تغمض عيونها عن كل شىء.

سألتنى ديانا باهتمام.

- عم يتحدث؟!

نظرت إليه. نظر إليها. واصل نغمته التسميعية قائلاً

- من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت - الذى يبدو ضعفا فينا أمام الناس - قد ثبت أنه سبب قوتنا التى أوصلتنا إلى أعتاب السلطة العالمية.

هزت ديانا رأسها وقالت للدباغ بثقة:

- إذن فأنت يهودى.

- نعم، وإن بابا إسرائيل سيصير البابا الحقيقى لهذا العالم وبطريرك الكنيسة العاليمة.

همست فى أذنى قائلة بحذر:

- هذا المجنون يردد بروتوكولات حكماء صهيون.

قام الدباغ يراقص فتاة زنجية وقد استغرق فى ضحك هستيرى غريب. قلت لها مدعيا الوقار والحكمة:

- إنه فلسطينى، وإن ضحكه هذا نوع من البكاء.

- غير معقول. - أنا لا أصدق أنه فلسطينى.

وضحكت وحدى على فراشى من الدباغ حين سقط من شدة الإجهاد وهو يهرف بكلام عجزت عن تفسيره ثم توقفت عن الضحك عندما تذكرت أنه ردد إسم أمه عدة مرات ثم لعن السادات وأمه، ولم أفهم لماذا انتباتنى رغبة ساحقة فى العودة فورا إلى مصر لرؤية أهلى وعشيرتى.

* * *

«مسائل كونية»

• الجنسية :

كنت على موعد فى السفارة المصرية حين التقيت مصادفة بسيدة قاهرية قالت إنها جاءت خصيصا إلى السفارة حتى تجد من تتكلم معه باللغة العربية على الرغم من إجادتها للسويدية. أشفقت كثيرا على حنينها للغة الوطن. وعند لقائى بالملحق الثقافى تبين لى أنها تستميت لأجل الحصول على الجنسية السويدية.

عندما غادرت المبنى كان يشغلنى التفكير فى الفرق بين الجنسيات المصرية والسويدية والاكوادورية فعدت إلى رحم

أمى قدر ساعة من الزمان ثم غادرته إلى أزمنة هرمس ورعمسيس وأخناتون، وكنت فى تلك اللحظة خلية واحدة عديمة الجنسية.

* * *

• الملوك والحكام :

أمام القلعة الملكية باستوكهولم التى يحرسها عدد قليل من الجنود، أقف مبهورا بروعة المكان المطل على النهر. يفاجئنى جندى بتأدية تحية عسكرية جادة، فألتفت من حولى فى دهشة لأتأكد أنه يقصدنى فعلا بهذه التحية.

عندما لاحظ دهشتى قال لى إن وظيفة رجل البوليس هى خدمة الشعب وضيوفه، وواجبه الأول احترامهم.. وعندما سألته عن حياة الملك بانبهار عظيم واحترام لا يخلو من مبالغة قال لى :

- يجب أن تعلم أن هذا القصر يسكنه موظف وضعه الشعب فى خدمته وأعطاه لقب الملك... وعندما بعث بن المقفع فى رسالته الرقيقة إلى الخليفة المنصور العباسى

ينصحه بحسن اختيار معاونيه والرفق برعيته فإن أمير المؤمنين أمر على الفور بتقطيع أطراف الرسول قطعة بعد قطعة، وشيهًا أمام صاحبها ثم أمره بمضغها وابتلاعها أمامه وقال عبدالناصر العظيم - وصدقت قوله - إنه لم يكن يعلم أن أتباعه كانوا يدربون الكلاب على مضاجعة معارضيه وأعدائه.. أما الأسد السورى فإنه يكتفى بدك المدينة المعارضة بدباباته فى زمن قياسى حتى لا تجرؤ طوبة بعد ذلك أن تفتح فمها، ولهذا فإن الشعب العربى آثر الصمت عملا بالمثل الشائع حول رأس الذئب الطائر أو «اضرب المربوط يخاف السائب»..

ومما زاد الطينة بلة أن الجندى السويدى عاود تأدية التحية العسكرية لى عندما اتجهت للانصراف من باب القصر الملكى.

* * *

● شجرة العائلة :

على ضفاف بحر البلطيق فى هود يكسفال دعوتها

لتناول القهوة فى مقهى صغير. قالت إنها بلا أب فسألتها عن أمها. قالت إنها تعمل وتعيش فى مدينة أخرى.

- فمن يتكفل بمصروفات دراستك وسكنك ومعيشتك؟

- المسكن تمتلكه أمى وعملى يكفل لى قيمة المصروفات الدراسية،. أما ثمن الطعام والكساء فترسله لى أمى شهريا.

- وهل تعيشين وحدك بالمنزل؟

- نعم ولكن صديقى يزورنى مرة كل أسبوع

- ولماذا لايقيم معك؟

- لأن له سكن خاص فى نفس المدينه.

- فلماذا لاتقيمين معه؟

- لأنه يعمل بمدينة أخرى!

* * *

● لغة الطرشان :

فى مطعم للبيتزا بضاحية إيجسند ترامى إلى سمعى

شجار للمرة الأولى منذ حضرت إلى السويد. دفعنى حب الاستطلاع إلى دس أنفى فى المشكلة. توجهت إلى صاحب المطعم الثائر. تعجبت أنه يصرخ بألفاظ إيطالية ولا ينطق كلمة سويدية واحدة. تبادله الصياح بالإيطالية سيدة أكثر هدوءا وبينهما يقف شاب وقد عقد ذراعيه فى برود على صدره دون أن ينطق حرفا.

وبقليل من الجهد توصلت إلى أن السيدة السويدية هى زوجة الإيطالى، وأن الاثنان يتفقان معا على كراهية السويد بسبب عنصرية شعبها، وأن الرجل يرفض رفضا قاطعا أن يتعلم السويدية، وأن الحوار بينه وبين ابنه مقطوع تماما لاختلاف اللغة!

* * *

● صوت الصمت :

فى ربيع هود يكسفال تشرق الشمس فى الثالثة صباحا ولا تغرب قبل العاشرة. يطول بى النهار فأتجول فى الخلاء

الواسع ولا ألتقى بمنزل إلا بعد وقت طويل.. ولا ألتقى ببشر فى الطريق إلا بعد وقت أطول. أما نوافذ المنازل فلم ألمح من خلفها وجه مخلوق يؤكد لى أننى أسير على كوكب الأرض.

أتوقف فجأة أمام بيت صغير تحيط به حديقة رائعة، فقد رأيت امرأة جميلة تقف خلف زجاج إحدى نوافذ البيت. شعرت بالأنس والطمأنينة ورغبت فى أن ألقى عليها تحية عابرة أثناء مرورى فلوحت لها بيدى لكنها لم ترد التحية. تعجبت لذلك ولكنى لم أيأس فكررت المحاولة دون استجابة.. ولما اقتربت كثيرا من المنزل تبين لى أنه تمثال نصفى لامرأة موضوع خلف النافذة، وأن هذا البيت الصغير ماهو إلا محل أنيق لكوافير سيدات.

* * *

● رأيت أخاك:

هربت من السيريلانكى كولانتاهاى كوماران الذى يسبس بأسنانه أثناء تناوله الطعام وبعد الانتهاء منه حتى

يصل بى إلى حد الغثيان. كان قد اتفق معى على الخروج فى جولة لاستكشاف الضاحية الجديدة التى جئنا لزيارة مصنع كبير بها ومشاهدة قطع أخشاب الأشجار فى فيزلاند بأحدث الأجهزة الأوتوماتيكية.

لم يكن موقفى منه نبيلا لكنى لا أكاد أطيق سلوكه وأفعاله فهو يخطف الطعام ولايتناوله وهو يكسر الأكواب دون قصد ويتهافت على النساء بحيوانية مقززه.. لكنه كان قدرى فى هذه الرحلة المحدودة بحكم توزيع أعضاء البعثة على مجموعات من حين لآخر.

عدت إلى مقر الإقامة فلم أجده. نزلت أبحث عنه وقد انتابنى هاجس بأنه توغل فى الغابة فأكله أيل أودب.. فى الطريق لمحت صبيا يبتسم لى فى دهشة فحييته بحرارة حين قال لى مشيرا إلى أحد مداخل الغابة :

- رأيت أخاك يسير منذ قليل فى هذا الاتجاه!

* * *

• أرق الرفاهية :

جئت من بلاد أعمل بها كثير وأكسب قليلا ولا أجد وقتا للفراغ واللهو وإنما أنام مجهدا فيعلو شخيرى فى الآفاق.

وفى السويد قال لى موظف كبير إنه يشكو من الأرق والملل والشعور بلا جدوى للحياة!

كان راتبه يعادل خمسة آلاف دولار فى الشهر ومنزله مؤثث بأحدث الأجهزة الكهربائية والترفيهية.

كرر شكواه فقلت له كاتما غيظى :

- هل تسألنى النصيحة لتعمل بها؟!

- نعم

- أشك فى ذلك

- قلها ونتناقش

- تبرع بثلثى راتبك لأية جهة محلية أو خارجية لفعل الخير.

بدا مندهشا لقولى فتابعت دون أن أعبأ به :

- ثم تخلص من كل الأجهزة المكدسة فى بيتك فتح فمه دهشة وهو يظن بى الجنون فواصلت :

- واذهب لتعمل فى الحقل أو الغابة ودع وظيفتك بعد ذلك وتوكل على الله.

- ولم هذا كله؟

- لتشفى من الأرق والملل والشعور بلا جدوى للحياة.

* * *

• الدجاجة والبيضة :

قلت له لائما :

- أنتم ترفعون سعر خشب السويد وكذلك منتجاتكم الصناعية كل عام.

- لأنكم ترفعون سعر البترول.

- لانكم ترفعون سعر الخشب وسائر المنتجات.

- لأنكم ترفعون سعر البترول.

ولست أذكر أينا كان البادىء بالتوقف عن الكلام.

• نشيد الكون السعيد :

امتطيت الدراجة وانطلقت إلى الغابة. توغلت بداخلها وتحذيرات كارل ترن فى أذنى عن الدببة والأيائل. انتشيت برائحة الشجر وأجنحة الطيور الملونة وانسياب ماء البحيرة فى لحن بديع. دعتنى فرحة الطبيعة لمراقصتها فى هذا الفضاء الشاسع الذى يخلو من البشر. لم أجد غير الأرض صدرا أحضنه ويحتضننى لنغنى معا نشيد الكون السعيد. رحت أتمرغ بملابسى فوق الخضرة والدراجة ملقاة بعيدا عنى. لو كان بمقدورى أن أتوحد برمال التربة السوداء وأتلاشى بين ذراتها لما ترددت.. وأغلب ظنى أن هذا ماكان.

* * *

• الانفصام :

قال لى فياندور الكوبى إن مظهرى الكلاسيكى وسلوكى الترددى ووقارى الشرقى، ما هى إلا ستائر داكنة يختفى من خلفها عربيد متمرد يعشق الجنون والانطلاق. قلت له دون اعتراض على تشخيصه الدقيق :

- لكنك نسيت شخصا آخر فى داخلى.

- فمن هو؟

- ذلك الذى يقرر متى يظهر الوقور ومتى يظهر المتمرد العربيد.

* * *

● الدكتورياتس :

أفنى ثمانين عاما من عمره فى دراسة تخصصية بالغة الدقة لليفة السليولوز المجهرية. أدرك خواصها الطبيعية وتوصل إلى أسرارها الكيمائية.

هاهو يقتلنى بهذه التفاصيل ساعة كاملة فى محاضرة من محاضراته الدسمة، لكنى أتوق إلى التجوال على ضفة النهر وتدخين سيجارة فى مقهى بالحى العتيق، والرقص مع حسناء فى ملهى ليلى.

أشعر بالاختناق فأتخيل مخه وقد استحال إلى تراب بعد موته، وأما الليفة السليولوزية الخائنة فتأبى أن تذكره أوحتى تمشى فى جنازته.

* * *

● صراع الحضارات :

بانتفاخ قاتل دعانا مستر بورش لحفل استقبال ابنه العائد من أمريكا بعد حصوله على شهادة عالمية فى شىء لا أذكره. سارع الجميع إلى الحفل فى لهفة. بقيت فى غرفتى بالمقر أقرأ صفحات من رواية لوليم فولكنر حتى غلبنى النوم. فوجئت بمدير البعثة يطرق بابى متعجبا لعزوفى عن الحفل. شاهدت هزيمة كبريائه فى عينيه الكاذبتين وهو يسألنى بأدب شديد :

- نحن نفتقدك فى الحفل يامستر سالم. سوف ننتظرك.

وانصرف واثقا من حضورى ولو من باب المجاملة الاضطرارية، وكان منزله قريبا من المقر بحيث يستغرق الوصول إليه دقائق معدودة.

بعد انصرافه واصلت النوم بعمق أشد.. وفى صباح اليوم التالى قال لى بما تبقى فى نبراته من كبرياء جريح :

- فاتتك ليلة من ليالى العمر.

وشعرت بلذة الانتصار لكنى تعجبت من نفسى إذ كانت بى رغبة قوية فى حضور الحفل!

* * *

● الحرية :

لم أتمالك نفسى من الضحك ذهولا بينما أرقب فى التلفزيون برنامجا خاصا عن الشواذ. يتحدثون عن الحب الخالص لبنى الجنس الواحد بعضهم البعض، وكيف يتعرفون بسهولة على ميولهم المشتركة. ثم عرض البرنامج مظاهرة كبرى يطالبون فيها بتشريع رغباتهم وتحويلها إلى حقوق دستورية. نظرت فى حيرة إلى أوجومباميرو النيجيرى مستفسرا عما يقصدون. قال بهدوء :

- يطالبون بحرية زواج الرجل من رجل أو المرأة من امرأة!

- يا الله!!

- لا تندهش.. فالحرية لاحدود لها..

وأعترف أن الدهشة حاصرتنى بقوة أشد بعد مرور خمسة عشر عاما على ذلك المشهد المقزز، حين عقد مؤتمر دولى بالقاهرة أطلقوا عليه مؤتمر الإسكان، إذ أقر المؤتمر كل هذه الحقوق!

* * *

• الأكذوبة الكاذبة :

مللت تهافتهم على الفتيات أكثر مما مللت تهافتهم على الطعام والشراب. كل من يلقى زميله يسأله إن كان قد نجح فى إقامة علاقة وثيقة مع فتاة. وينهمر غيث من أعراض الحرمان والجوع والفقر فى كل شىء، فتتطلق الأكاذيب الفاضحة من أبناء العالم الثالث الذين جاءوا إلى السويد وهم يعتقدون أن الفتيات سوف يتقاتلن لأجل الحصول على لمسة من جلودهم البرونزية والسمراء.

كان لابد أن أختلق كذبة أنا الآخر حتى أنجو من هذا المطب السخيف. وانهالت على الأسئلة بلا رحمة :

من هى. ما اسمها .كيف عرفتها . أين. ماذا فعلت بها. ماذا قالت لك. هل أعجبتها . هل استمتعت بها أكثر مما تستمتع ببنات قومك؟!!

ولما ازداد الحصار من حولى حتى كاد أن يفتضح أمرى قلت لهم بوقار :

- لقد كانت خرساء ولم تكشف لى عن جنسيتها، وأغلب ظنى أنها سائحة مصرية!

* * *

● الجينرال الصبور:

عند زيارتى لقلعة الملك كارل الخامس عشر ترددت أسطورة جنراله الشهير الذى تقدم للزواج من فتاة فرفض طلبه.. عاد إلى الحديقة فزرع شجرة، واستمر على هذا الحال حتى صار بالحديقة اثنتا عشرة شجرة!.. ولكنى لست أذكر هل وافقت الفتاة الثالثة عشرة على الزواج منه ثم مات، أم أنه مات قبل أن يزرع الشجرة الثالثة عشرة، أم

أنه شعر بالملل فامتنع عن زرع المزيد من الأشجار ثم مات أم أنه مات ثم تزوج بعد ذلك ولم يزرع شجرة جديدة.. أما الذى سأظل أذكره دوما، أن الجينرال الصبور قد فنى منذ عشرات السنين وبقيت الأشجار!

* * *

• الأعمال بالنيات:

فوجئت للمرة الأولى بعاملة النظافة تطرق باب سكنى بمقر البعثة. دخلت ومعها المكنسة الكهربائية وبعض أدوات النظافة والمناشف الورقية والقماشية. راقبتها وهى تعمل باجتهاد غير عادى وحب شديد.. قررت أن أمنحها بضع كورونات كمكافأة تشجيعية. اقتربت من زجاج النافذة المطلة على المدخل لأبحث فى الدولاب المجاور عن حافظة النقود. فوجئت بها وقد أنهت عملها وانصرفت دون أن أدرى.. كانت تفتح باب عربتها الفولفو بعد أن وضعت معدات النظافة بالصندوق الخلفى.. لم أفق من دهشتى إلا على صوت الموتور القوى.

* * *

● **نوم الهناء :**

على المقعد المواجه لمقعدى مباشرة فى القطار المتجه إلى جوتنبرج استغرق الفتى وصديقته فى قبلات مرحة وكلمات دافئه. وبمضى الوقت قلت الكلمات وازدادت أزمنة الاستغراق فى القبلات الصامتة. كنت أسمع أنفاسهما تتردد وأرى الرغبة فى عيونهما تتأجج. إجتهدت أن أتحاشى النظر إليهما مباشرة قدر استطاعتى فهذا شىء لايعنينى وإن كان يثير فضولى.، ويبدو أننى شردت قليلا حين ساح خيالى إلى مصر، حيث يستحيل أن يحدث مثل ذلك المشهد. فوجئت بالمقعد خاليا. سارعت عيناى بتعقبهما. لمحتهما يدخلان معا دورة مياه الرجال بنفس العربة. لم يلتفت إليهما أحد على الاطلاق. بعد فترة زمنية كافية خرج الاثنان عائدين إلى مقعدهما. نامت فى استرخاء على صدره، أما هو فقد أخرج من حقيبته كتابا صغيرا واستغرق فى قراءته دون أن يدرى بما حوله، ولم يلبث أن نام هو الآخر.

* * *

● **غنـــاء :**

غناء.. أول من عـرفت فى حـياتـى من حـاملـى الجنسـيـة الإسـرائيليـة من الجنسين. يهودية يمنيـة قبيحـة الوجه حلوة الروح. التقيت بها فـى القطار المتجـه إلى «ليسيبـو». قدمنى لها الثرثار السـيريلانكى كولانتهاى كومـاران بناء على طلبها وموافقتـى ثم تركنا ومضـى سعيدا بما فعل. لم أكن أعـرف فى بداية الحـديث أنهـا من أصل عـربى فظللنا نتـحدث عن السـلام ونمتـدح السادات بالانجليزية حتى قـالت فى سقطة لسان مفاجئة: «معلوم»!

بعـد أن اكتـشـفت ملعوبهـا سـألتـهـا عن ذلك السـويدى الجـمـيل الوجـه النائم بجـوارهـا فـفـوجـئت بـأنه زوجـهـا. شـجـعتنى روحها المرحة على تـخفيف حدة التحفظ فقلت لها :

- كيف حصلت عليه؟

- مثلما تحصل أى امرأة على رجل تريده

- أين؟

- فى اليمن حيث جاء ضمن مجموعة عمل فى مشروع بصنعاء

وبغير تخطيط مسبق تخليت عن توجسى تماما فسألتها وأنا أغمز بعينى :

- ولكن هل له بسخونة أهل الشرق؟

- فى البداية كان باردا كالثلج

- ثم ماذا بعد؟

- جعلته مدمنا للبهارات اليمنية.. معلوم!

حتى لو لم تكن شهور أربعة قد مضت على مبادرة السادات، فإن هذا لم يكن ليحول دون الضحكات والقفشات والنكات العربية المتبادلة بيننا طول الطريق.

بعد عودتى إلى عربتى تعجبت لماذا انتابتنى رهبة شديدة وسيطر على قلق بالغ عندما جاءنى كوماران قبل ساعة يعرض على فكرة الالتقاء بغناء.. تلك الإسرائيلية القبيحة الوجه، واليمينة حلوة الروح.!

* * *

● الحنين :

أمـام خـريطة العـالم أقف واعـيـا بحـجـمى وكـيـانى ومـقـدراتى مـسـتـسلمـا لأقـدارى. أنظر إلى تلك البـقـعـة الصـغيـرة فى منتصف العـالم. على كل هذا البـعد السحيق تنتظرنى الآن زوجة محبة وطفلان جميلان وأم رائعة.. تفصل بينى وبينهم محيطات شاسعة، لكنها لا تستطيع مهما تلاطمت أمواجها أن تقطع مابينى وبينهم من وصل جميل.

إنى بشـوق جارف إلى أزقة بلادى وشوارعها وأناسها المتزاحمين المتصارعين على لقمة العيش، المتحدثين بلغة القـرآن.. شـوق تعـجـز الكلمـات عن وصـفـه حـتى أننى تعـجـبت من نفـسى كـيف أضـيق بعـد أسـابيع قليلة بهـذا الجـمـال الذى أبهـرنى منذ وطئت قـدمـاى أرض السـويد.. فـمن ذا الذى يضـيق بالنظام ويحن إلى الفـوضى، ومن ذا الذى يضج من الرخاء فيبحث عن الفقر، ومن ذا الذى يمل الهـدوء فـيشـتـاق إلى الـزحـام والـضـجـيج مـالم يكن بعـقله عطب ما.

أردت أن أقارن نفسى بغيرى من المبعوثين فسألت البعض منهم إن كان الحنين إلى الوطن قد عاوده أم أن تلك الحياة المشبعة قد أنستهم حياتهم.

ولما علمت أن معظمهم أكثر حنيناً منى إلى أوطانهم أدركت أنها ظاهرة إنسانية تشد الإنسان إلى جذره ومنبته وانتمائه، وأن من لا ينتابه مثل هذا الحنين فإما أنه عديم النخوة وإما أنه عالمى الانتماء قد بلغ من الفكر ذروته فاتخذ من الأرض بأسرها وطنا له وأصبح وجوده على أى بقعة منها لا يختلف فى شىء عن وجوده على بقعة أخرى.

استعرض خيالى صور المبعوثين جميعا لأنتقى منهم أصحاب الانتماء العالمى فلم أقف عند أحد منهم.. الكل يقدس وطنه ويراه أجمل الأوطان ويتعصب لفقره وتخلفه بلا تبصر، حتى الحاصلين منهم على الدكتوراه فى العلوم!

سارعت إلى غرفتى أكتب الخطابات لأسرتى وأصدقائى فى مصر.. ولا مفر من مواجهة شعورى الحقيقى الذى تبينته فى تلك اللحظة بأن انتمائى لتلك البقعة الصغيرة

من الأرض والتى تقع فى منتصف العالم هو فرع متين من شجرة انتمائى إلى الكون وخالقه العظيم.

* * *

«الرقصة الأولى»

يا ويلتى.. ماذا أفعل بنفسى لو تقدمت إليها ثم رفضت دعوتى للرقص؟..

إنى أشتهى تلك الفتنة المتألقة المتوهجة المشتعلة بنار الجمال الحارق.. يقيدنى بالفولاذ ذلك التراث الطويل العريض العميق من القهر الفردى والجماعى والفكر الموروث الذى تكاتف الزمن والموقع والدين والحكام والتاريخ فى تكبيلى به. يقتلنى التردد يعذبنى. يكوينى بلهيب الخوف من المحظور وسوء الظن وخشية سوء الفهم، وشىء من الإحساس بالدونية على الرغم من المخزون الهائل الذى لقنته منذ طفولتى عن حضارة آلاف السنين.

أطفأت سيجارتى وتقدمت نحوها بخطى غير واثقة.. اقتربت من مائدتها التى يجلس من حولها مجموعة من الفتية والفتيات، فوجئت بعيونهم تتطلع نحوى فى دهشة ممزوجة بالحياء وابتسمت فى رقة.. لم تلتفت إلى تعثرى فى الكلمات وإنما قامت واقفة على الفور لتزيل عن صدرى جبل الجليد.

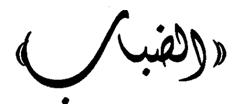
ضحكنا من الأعماق وتحولت الموسيقا الصاخبة فجأة إلى إيقاع التانجو الهادئ.. وها هى معشوقتى المجهولة الحالمة بين أحضانى. تخاطبنى فى أذنى مباشرة حتى لا تغلب الموسيقا على همسها فأشم رائحة أنفاسها الزكية. ليتها تدرك أن همسها أروع من الموسيقا وأطرب، وأن زفيرها العطر قد بعث الحياة من جديد فى روح جدتى إيزيس بعد آلاف السنين منذ حمل أبوللو معبودته طائرًا بها من جبال الأوليمب إلى نيل مصر الساحرة.

لفت نظرى بشدة أن جسدها يرتعش. ظننت فى البداية أن الخمر قد لعبت برأسى ففكرت أن أسألها لماذا ينتفض جسدها ولماذا هو ساخن ملتهب هكذا.. أهو خوف أم

ارتباك أم خجل أم رغبة؟.. وإذا كان هذا حالها وهى ابنة الشمال البارد الغارق فى الثراء فكيف يكون حالى والحياء يكاد يقتلنى كعذراء تتعرى أمام رجل للمرة الأولى.. إنها تلتصق بى فى تعمد غريب فأبتعد فى ارتباك مستتر. لعلها نسيت الآن صديقها المسافر الذى حدثتنى عنه وتريدنى أن أضمها إلى صدرى لتسبح فى أنهار شوقه الطويلة.

تصبب عرق على جبينى فقررت المجازفة ثم عدلت عن قرارى ثم ترددت بين القرار والعدول عنه ثم آثرت السلامة متوهما شدة احترامها لى لكونى مختلفا عن الآخرين فى تهافتهم عليها والتهامهم لمفاتنها بعيون العالم الثالث الجائعة.. وما أن انتهت الرقصة حتى أعدتها إلى مائدتها وقبلتها مثلما يفعل الآخرون ثم عدت إلى مائدتى ثمل الأعطاف أجتر وقائع التجربة الأولى فى عمرى للرقص مع فتاة فى شمال غربى الكرة الأرضية.

* * *



إنه يوم تاريخى فى السويد، فقد ارتفعت درجة الحرارة إلى أربع درجات مئوية فوق الصفر، وبدأ الجليد فى الذوبان ليحل اللون الأخضر فى هدوء موسيقى محل اللون الأبيض.. وتعزف الغابات الشاسعة سيمفونيتها الخالدة بألحانها البنية والخضراء والبيضاء، بينما تتصاعد على مدى البصر أبخرة الماء فوق أسطح الأنهار والبحيرات التى راح جليدها يستسلم فى نشوة للذوبان وكأن الزمان السعيد الذى عاشه فوقها قد ولى عبثًا بغير استئذان إلى زمان آخر تغرد فيه بلابل الربيع أناشيد الحب والحياة..

ويكتسى الجو كله بغمامة بيضاء مضببة تبعث فى العقل حيوية لا حدّ لها وتنعش الروح بالأمل والبهجة.. فأتعجب لمشاعر الحزن والانقباض التى كانت تعترينى فى أرض النيل والشمس والدين والدفء والحب كلما خيم الضباب على الجو، فيصطبغ يومى كله بصبغة من التشاؤم قاتمة لا أمل فى زحزحتها عن كاهلى. وأتساءل فى دهشة أليس هذا أيضًا هو ضباب الله؟!

فى الاستراحة الفخيمة ونحن نشرب القهوة قال لى مدير إحدى المؤسسات التى أتدرب بها إن علاقته بجاره لا تتعدى تحية الصباح أو المساء، فأسأله عن سبب الخلاف الذى أدى إلى هذه القطيعة بينهما فيقول لى ضاحكًا:

- ليس بيننا خلاف أو قطيعة، وإنما هذه هى العلاقة الطبيعية بين جار وجاره.

وحين تهب عواصف الشتاء الرعدية فى مصر لا يهجر المقاهى روادها وإنما يغلقون على أنفسهم الأبواب ويواصلون انهماكهم الجنونى فى الكلام وإلقاء زهور النرد

وسحب أنفاس النرجيلة، لينصهر ضجيجهم فى ضجيج الراديو والتليفزيون وصياح النادل وهم سعداء بغفلتهم عن حركة الزمان وغفلته عنهم.

- عجبًا لكم

- لا مبرر للعجب فإننا لا نحب كثرة الكلام كما أن أحدنا ليس بحاجة إلى الآخر.

- أليس معظمكم من المسيحيين المتراحمين؟

- إن الصقيع يعلمنا الوحدة، والحقيقة أننا لا نشغل أنفسنا كثيرًا بالغيبيات.

ولدى عودتى إلى المقر تلقيت خطابًا من أمى تنصحنى فيه بارتداء الملابس الثقيلة إتقاء للبرد كما تحذرنى من شرب الخمر ونكاح المشركات.

* * *

«الوحشة»

ظننت نفسى فى مصر أو أوهمتها بذلك، فقلت أتمشى بمفـردى فى تلك الشـوارع اللامـعة البـراقـة أحدث نفسى بصـوت خـفـيض وأضـحك فى بعض الأحـيـان بطريقـة هيـسـتيـرية خـافـتـة وأحـرك حـاجبى إلى أعلى وأسـفل وأخاطب كائنات وأفكار خرافية حتى أتحرر من قيود العمر وأعود طفلاً لاهيًا لا يعرف التفكير فيما يهم من الأمور.

الشوارع خالية من المارة. نوافذ البيوت مغلقة تحجب جزءًا منها أصص الزهور الملونة، ومن خلفها تبدو الستائر البيضاء المزركشة كمساحة من الفرحة تكسو لوحة كونية معجزة.

الصمت هنا محير. أحبه حتى العشق وأرهبه حتى الموت. أين أنتم أيها الناس من آلاف البشر الهائمين الآن - بلا هدف - فى شوارع القاهرة تحت سماء زرقاء وشمس ساطعة تحيط بهم جبال المقطم وتنثر عليهم أتربتها الصفراء العجوز وتكتظ بهم المقاهى يدخنون المعسل والسجائر ويشربون أطنانًا من الشاى الأحمر ويثرثرون دون أن يعرف بعضهم البعض!

لم أكن أتصور استحالة أن يتسكع إنسان فى شارع أوروبى لمدة ساعة أو ساعتين. يكاد أنفى يتجمد وأشعر أنه يؤلمنى بشدة. حين خلعت قفازى لأشعل سيجارة احمرت يدى وارتعشت.. وها هو الموت يخيم على أشجار البيرش والباين العملاقة المكسوة بالجليد، ملقيا بثقله الكثيف على النهر المتجمد والبيوت المغلقة والشوارع الصامتة القبور.

انتابنى شعور قارس بالتعاسة لكونى إنسان!!.. تحول هذا الشعور بعد قليل إلى خوف يقترب من الرعب، وكأن

الطبيعة قررت اغتيالى فجأة ولا سند ولا معين ولا مخلوق يوحد الله أو يثلثه أو حتى ينكر وجوده.

أدهشنى أن هؤلاء الموتى يصخبون فى المساء ويعربدون رقصًا وسكرًا وغناءً وضجيجًا، ثم أعود لأجدهم فى الصباح وقد تحولوا إلى كائنات روبوتية لا يستطيع الواحد منهم أو لا يكاد ينظر بعينيه الإنسانيتين إلى الآخر.

هاجمنى غم ثقيل جثم على صدرى بعنف، وانهارت معنوياتى إلى الحضيض.. عدت مكتئبًا إلى مقر إقامتى يقتلنى الحنين إلى سماع صوت أم كلثوم.. وكانت ليلة حزينة بحق!

* * *

«تاريخ الجمال»

دخلت قاعة المحاضرات بينما كانت المحاضرة تتجه إلى المنصة فى خطوات رشيقة.. رأيتها من الخلف ذات قوام بديع وساقين مخروطتين وخصر نحيل ورقبة عاجية وشعر ذهبى كشمس النهار.. تعجبت كيف تأتى لفتاة بهذا الشباب المتفجر أن تقف أمامنا كمحاضرة فى تخصص علمى دقيق بهذه البساطة؛ متى أنهت دراستها الجامعية ومتى حصلت على الدكتوراه ومن أين لها بهذه الخبرة العلمية التى تضعها ذلك الموضع.

ما أن استدارت حتى رأيت وجهًا متجهمًا لا يقل زمنه عن ستين عامًا إن لم يزد. حيتنا ببرود وبدأت محاضرتها

مثلما أنهتها بحزم وجدية ووقار. كانت براعتها فى توصيل المعلومة تفوق الوصف. حبس الجميع أنفاسهم طوال المحاضرة إذ لم تسمح بالأسئلة خلالها.

انتظرت طول المحاضرة وخلال الأسئلة أن تفتر شفتيها عن ابتسامة واحدة دون جدوى. كان لحديثها رهبة ولمناقشاتها رهبة ولصمتها رهبة!

منحتنا استراحة قصيرة على أن تبدأ محاضرتها الثانية بعد ذلك. انزوت فى ركن بقاعة الاستراحة تشرب القهوة وتدخن سيجارة.

استبد بى شيطان عنيد متسلط يدفعنى إلى اقتحام القلاع ودكّ الحصون. اقتربت منها حاملاً فنجان قهوتى مستأذنًا فى الجلوس معها فأومأت برأسها علامة الموافقة ولكن دون أن تبتسم.

قلت لها بلا مقدمات غير عابئ بالعواقب:

- يبدو أنك كنت صارخة الجمال فى شبابك!

ولأول مرة أرى ابتسامتها العذبة المجربة وهى تسألنى على الفور دونما دهشة أو تعجب:

- من أى البلاد أنت؟

- من مصر

.. ها هى تبتسم مرة أخرى لتقول فى تنهيدة من القلب:

- هيه.. كان هذا تاريخًا بعيدًا!

* * *

«الرسائل»

إيجسند فى ١٩٨٠/٥/١٦

● **صديقى العزيز حمدى:**

أبعث إليك بتحياتى من البلاد التى سبقتنى إلى زيارتها فى العام الماضى وملأت رأسى بأقاصيصك الخيالية عنها بخبراتك العظيمة بشعبها.. ولأنى واثق تمامًا بأننى أكتب إليك من السويد لا من بلد آخر غير الذى حدثتنى عنه وأفضت - بغير علم - فإنى أنصحك بزيارة طبيب نفسانى فقد صرت أعتقد جازمًا بأنك مصاب بانفصام فى الشخصية.

لقد انتظرت - على أحر من الجمر - طابور الحسناوات اللاتى قلت لى أنهن سيتزاحمن أمام مسسكنى ويتصارعن لأجل الحصول على قلبى فلم تحضر منهن حسناء واحدة!

ولقد ظننت أن الحياء يمنعهن من الظهور علانية فنزلت عديدًا من المرات أبحث عنهن فى زوايا الحديقة دون جدوى.

* * *

قبل أن أبرر لك نصيحتى تلك، أذكرك بأهمية تسلم راتبى من الشركة وتسليمه لزوجتى على الفور، ولن أقبل منك حجة تقول بأن قاطع طريق قد هددك بالقتل وسلب راتبى وراتبك معًا حتى لو أقسمت لى بتربة جدتك.

لقد قلت لى أنهم لا يعرفون العنصرية على الإطلاق ففوجئت بالفتيات يصحن أمامى فى وجه نيى أو جو مباميرو النيجيرى عند عبوره الطريق قائلات فى سخرية:

- كنتا كينتى.. كنت كينتى.. فلات نوز!! Flat nose.

ناهيك عن مستر بورش الذى حدثتنى بإعجاب شديد عن «شخصيته الطاغية» فهو فى رأيى مثل صريح للتعصب العنصرى المستتر الذى يفوق فى خطورته التعصب المعلن.

* * *

أرجو أن تخبرنى بالتفصيل كيف تم تزوير انتخابات النقابة بالشركة، إذ علمت من خطاب أرسله لى أحد العمال أن معظم الفائزين فى هذه الانتخابات من اللصوص والمرتشين، وهذا ما لا أستطيع تصديقه على الرغم من تكراره من قبل فى الكثير من الانتخابات السابقة. والحقيقة أننى لست أدرى إلى متى سأظل عاجزًا عن تصديق كل ما يحدث فى بلادى على الرغم من بلوغى السادسة والثلاثين من العمر.

لا تتردد فى زيارة الطبيب يا صديقى العزيز، فلقد كنت تتعمد خداعى يا مسكين دون أن تدرى فى لذة مرضية لم تخطر ببالى - بذكرك عكس الأشياء وقلبك للحقائق إلى نقيضها تمامًا، من بينها قولك إننى سوف ألتقى بمدير

إدارى للبعثة اسمه كارل جوستاف وهو ـ على حد تعبيرك ـ «لا يهش ولا ينش»، فالسلطة كلها فى يد بورش العظيم!

ومرة أخرى كانت معلومتك معكوسة.. (يزداد الألم فى لثتى وأنا مازلت بانتظار هيلدا التى ستصحبنى بعربتها الى طبيب الأسنان بعد قليل).. فأما السلطة فلا يعنينى أمرها مع هذا كانت أو مع ذاك، وأما كارل جوستاف فقد جمع فى تلقائية فذة بين نقيضى الشرق والغرب وهما القلب والعقل.. ولعلك تدهش لو قلت لك أننى أحببت هذا الرجل كما يحب إنسان أباه تماما.

لقد فاتك يا عزيزى أن تنبهنى إلى نقطة هامة وهى اختلاف قيمة العملة، إذ ظللت أسبوعا كاملا لا أشترى شيئًا على الاطلاق. كنت أنظر إلى قرن الفلفل الرومى الواحد فأجد أن ثمنه يعادل خمسين قرشا مصريا تكفى لشراء كيلو جرامين منه فى مصر، فأتراجع عن الشراء على الفور، وقس على ذلك بقية المأكولات الضرورية حتى الخبز.

ولولا أن انتبهت بفطرتى إلى ضرورة أن أنسى العملة المصرية ولا أخضع الأسعار هنا للمقارنة بأسعار مصر، لعثروا على جثتى فى الغرفة ميتا من الجوع، لتكون أنت السبب يا صديقى العزيز.. (جاءت هيلدا وسوف أكمل خطابى بعد العودة إن شاد الله).

طلبوا منى أن أخلع حذائى وأرتدى بدلا منه خفا من البلاستيك، كدت أنفجر من الضحك حين سألنى الطبيب:

- هل تعود طبيب أسنانك فى مصر مرة كل ثلاثة أشهر؟

- إنى لا أراه ولا يرانى إلا إذا اضطررت لخلع ضرس نخره السوس!

- هذا خطأ جسيم.. فالإنسان بحاجة ضرورية للفحص الدورى.

غادرت القاعة البيضاء المطهرة والجدران الهادئة التى تحيط بالغرف المصنوعة بأكملها من الخشب الطبيعى بلا دهان، متجها مع هيلدا إلى الصيدلية ومعنا روشتة بصرف دواء بسيط أزال عنى الألم على الفور، وجلب لى وسواسًا

قهريًا اسمه المقارنة.. ولقد استعذت بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم حتى لا أبكى على نفسى أو على بلدى أو على ضرسى.

وحتى لا يركبك العناد وترفض الاستجابة إلى نصيحتى المخلصة باستشارة طبيب نفسانى، فإنى لن استفيض فى ذكر مفاهيمك الخاطئة تماما لطبيعة هذا الشعب الانطوائى الخجول خاصة مع الأجانب، والذى لا يخجل أبدًا من الاعتراف بنقائصه فى شجاعة بالغة وحرية تامة.

.. إنما أريد أن أقول لك إننى جنيت مكاسب هائلة من وراء السادات الذى لم تعجبك مبادرته.. إنهم يقولون عنه هنا أنه رجل الدولة الوحيد فى العالم الآن بعد رحيل العمالقة من أمثال ديجول وأيزنهاور.. ولأنهم يعشقون السلام فقد عشقوا السادات وصاروا ينادوننى باسمه أحيانًا وبمستر إيچيبت أحيانًا أخرى، وكثيرًا ما يدعوننى إلى محافلهم ويرفضون تقاضى أجرة التاكسى أحيانًا عندما يعرفون أننى مصرى.. هكذا رفع السادات أسهمى

فى بلاد اسكندنافيا فوق ما كنت أتصور.. وها هو مفعول البنج يفقدنى الإحساس بالشبع فألتهم ما يقرب من دجاجة كاملة دون أن أدرى إن كنت قد شبعت أم ما زلت جوعانًا.. وآه لو تدرى يا عزيزى كم أوحشتنى الطعمية المقلية فى الزيت المغلى والمحشوة بالبصل والشطة، وكم أوحشتنى رائحة المصنع ومشاحنات العمال ومؤخرات العاملات وعم عبده ساعى المكتب الذى يعاملنى معاملة العبيد وأحبه ورئيسنا الخبيث الذى لا تعرف إلى أين تتجه نظرات عينيه الثعلبيتين وسكرتيرتى العانس الشبيهة باسبارتاكوس والأسطى على فجلة الذى يقف على شاربه صقران كبيران ويرمح فى ذمته حصان عربى أصيل.. إيه.. ولله فى خلقه شئون!

* * *

ـ ماركاريد فى ١٩٨٠/٤/٣٠م

● زوجتى الحبيبة آمال

أعترف لك اليوم وقد مضى على بقائى بالسويد ما يقرب من شهر ونصف إننى بدأت أشعر بالملل والضيق.. إنى بشوق حار إليك وإلى ابنى باسم وابنتى بستان، وإلى بيتى ووطنى وأصدقائى وحياتى البسيطة فى مصر.. وكلما ازداد بى الحنين إليكم جميعًا أدرت شريط كوكب الشرق أم كلثوم الذى يحمل أغنية «سافر حبيبى» لعله يمتص بعضًا من الشوق ويهدئ بعضًا من الحنين، لكنه غالبًا ما كان

يزيد من شوقى ويضاعف من حنينى، فأستمع إلى كلماته والدمع ينهمر من عينى!

لقد ذهبت مساء هذا اليوم إلى الحديقة القريبة من نهر جيته لمشاهدة الاحتفال التقليدى للسويديين بليلة أول مايو (عيد العمال) حيث يبدأ عندهم فصل الصيف - علمًا بأن الحرارة اليوم سبع درجات مئوية لا تزيد - وكان الأطفال يعزفون الموسيقا والكبار يغنون معهم وهم يقذفون بمخلفات العام الماضى من ملابس وغيرها تحت شجرة كبيرة ويشعلون فيها النار، بينما يحيط بها الأطفال حاملين مشاعلهم الملونة.

ما هى أخبار باسم وبستان اللذان أوحشانى جدًا، وما هى أخبار أمى العزيزة التى تركتها مطمئنًا فى رعايتك وتحت جناحيك الرقيقين؟.. قولى لها إننى فى غاية السعادة وإننى أتمنى لها الصحة والعافية وحسن الختام.

لقد تعلمت هنا أهمية توجيه طاقات الأطفال إلى الأعمال الكشفية والفنية والثقافية الشيقة، وأيقنت ضرورة

إشباع هواياتهم واصطحابهم إلى الرحلات والمطاعم فى أماكن مختلفة حتى تشب شخوصهم سوية ناضجة، وأعدك أننى سوف أضع ما تعلمته هنا موضع التنفيذ بمجرد عودتى بإذن الله.

شىء عجيب يحدث هنا يا آمال الإضرابات مستمرة فى قطاعات كبيرة بالدولة.. وعلى الرغم من ذلك فالحياة لا تتوقف أبدًا وإنما يسودها الهدوء.. والمناقشات ساخنة للغاية - بين مندوبى العمال المطالبين برفع أجورهم وأصحاب العمل الرافضين - فى مقار النقابات وعلى شاشة التليفزيون.. يحدث هذا دون تدخل من الحكومة أو الشرطة، ثم ينتهى دائمًا بسلام بعد التوصل إلى حل وسط.. فلا اشتباكات بين الجماهير والجنود، ولا قتلى ولا مصابين، ولا تعتيم إعلامى لتفاصيل ما يحدث، فالديموقراطية الحقيقية تكفل للشعب معرفة التفاصيل الدقيقة لكل حدث يعنيه.

انى أحبك كثيرا يا آمال، حب يكفينى لممارسة الحياة بشغف، ويعوضنى عن المال والجاه والشهرة. إنى أحلم

بلحظة السعادة المرتقبة حين تصافح عيناى وجهك الجميل وأنت تنتظرينني يوم العودة بإذن الله. إنها لحظة تعادل من عمرى سنوات وسنوات.. وماقيمة العمر لو مر بلاسعادة، وما السعادة إن لم تكن فرحتى بابتسامتك الحبيبة، وما الفرحة إن لم تكن بين أحضانك أحتويك وتحتويني.. أقبلك وتقبلينني ونغيب فى نشوة أصيلة تبقى لنا رصيدا فى شيخوختنا يعيننا على احتمال الحياة.

ملاحظة :

لقد زهقت من استخدام الشوكة والسكين فى تناول الطعام.. فأرجوك رجاء حارا أن تعدى لى يوم وصولى حلتين كبيرتين مليئتين بالبامية والملوخية حتى أستطيع أن أغمس اللقمة بيدى فى أطباقك الشهية الرائعة.

* * *

- لوند فى ١٩٨٠/٥/١م:

ذهبت اليوم بعربة خاصة فى زيارة سياحية لمدينة لوند بالجنوب، وحضرنا احتفال الجامعة السنوى بخريجيها

القدامى وتناولنا الغداء معهم فى قاعة ضخمة فاخرة كالقصر وقد فوجئت بأنهم يغنون أناشيد جماعية خلال تناول الطعام على فترات متعاقبة، حيث يتقدم أحدهم إلى الميكروفون ليغنى فيتوقف الجميع عن الطعام حتى ينتهى من الغناء بمصاحبتهم، ليعودوا جميعا إلى تناول الطعام. وهناك أغان يقف فيها الرجال فقط بينما تبقى النساء جالسات.. وفى النهاية حيوا المبعوثين بنشيد الغابة فوقفنا جميعا نصفق لهم ويصفقون لنا.. ألا ما أجمل الرقى والتحضر والغناء.. وما أروع أن يعرف الإنسان كيف يسعد نفسه.. وما أسعد من شاءت الأقدار أن يولد على أرض تنعم بالرفاهية والرخاء.

* * *

هوديكسفال فى ١١/٥/١٩٨٠م

● ابنى العزيز باسم :

كتبت لك هذه الرسالة خصيصا فأنت رجل البيت فى غيابى. أطلب من أمك أن تقرأها لك على مهل لتستوعبها

جيدا. لقد وصلت إلى محطة هو ديكسفال بعد سفر متصل بالقطارات دام اثنتى عشرة ساعة. كان بصحبتى سالازار الفيليبينى من البلاد التى يحبون فيها أكل لحم الكلاب.. وكولا نتهاى كوماران من سيريلانكا التى تصدر لنا الشاى وهيليا الأنجولية السوداء التى ترى نفسها أجمل من مارلين مونرو.. فهناك ياباسم مخلوقات ذات قدرات جبارة ولكن ينقصها الثقة بالنفس، وهناك على العكس من لا يستطيعون إنجاز شىء فى حياتهم ولكنهم يمتلئون ثقة وغرورا.. وأتمنى ألا تكون من أحد الصنفين.

استقبلنا عجوز يقترب من السبعين على المحطة ولقد عرفت نفسى له قائلا :

- أنا اسمى سالم وأنا متعب جدا وأريد النوم فورا على رصيف هذه المحطة!

ولكنى فوجئت بهذا العجوز يقود بنا العربة بسرعة هائلة ويتحدث بنشاط وحيوية شاب فى الثلاثين فخجلت من نفسى. دعانا إلى العشاء بمنزله.. آه لو رأيت هذا المنزل

يا باسم.. إنه بيت خشبى يقع على بحر البلطيق شمال شرقى السويد. تحيط به حديقة جميلة، والبيت بحديقته يقعان فى غابة كثيفة من الشجر الكبير الذى تزيد أعمار بعضه على مائة عام. هأنت ترى يا باسم أن الشجر يعيش أحيانا أكثر مما يعيش الإنسان، ولابد أن تفكر فى ذلك طالما بقيت على قيد الحياة، فهذا سيفيدك كثيرا إذ يجعلك تحجم عن أعمال وتقدم على أخرى دون أن تندم على ذلك.

قال لنا لارش إنه يعيش بقلب صناعى وقالت لنا زوجته رقيقة المشاعر إنهما نباتيان لا يأكلان اللحوم، ولما سألتها عن السبب قالت :

- لقد قرأت يوما بإحدى الجرائد أن هناك آلافا من البشر يموتون فى أفريقيا لنقص الغذاء فأردت أن أوفر لهم أنا وزوجى ما نمتنع عنه من اللحم، ولو فعل مثلنا كثيرون لكان ذلك شيئا رائعا.

فى العشاء قدمت لنا طبقا من حساء الخضروات المغلية ذكرنى بالملوخية ولكن شتان بين الطعمين. إن أمك تأكل

الملوخية فتتام أما هذه العجوز فمازالت تمارس رياضة الانزلاق على الجليد.

لا أخفى عنك ياباسم أن المنظر هنا فى الليل مخيف تتجسد فيه وحدة هذين العجوزين فى ذلك الصقيع المظلم والجمال الوحشى العابس.. أما فى النهار فكانت النوارس تملأ المكان ضجيجا وصياحا بينما كان لارش يحدثنا عن حرية المواطن السويدى وعن انصياع الحكومة تماما لرغباته، فلقد أرادت الحكومة رش سائل كيمائى على جانبى خط السكة الحديد لاقتلاع الحشائش المحيطة بقضبان القطار.. ولأن الناس هنا أعداء حقيقيين لتلوث البيئة بأى صورة من الصور فإنهم تجمعوا فى طريق القطار الذى سيقوم بالرش مما اضطر السائق للتوقف وألغت الحكومة القرار وأرسلوا بعمال لإنجاز هذا العمل بشكل آخر.

كما أرادت الحكومة يوما أن تلغى أسماء القرى المتناثرة وتطلق اسما واحدا على المنطقة التى تجمع هذه القرى فرفض الأهالى وامتثلت الحكومة لرغبتهم.

لقد كنت فى الثانية من عمرك ياباسم حين قررت السلطات إنشاء مدرسة فى واجهة بيتنا.. تلك المدرسة التى تراها الآن ملاصقة لنوافذ غرفنا.. ولقد بذلت المستحيل أنا والجيران وقابلنا المسئولين مطالبين بأن يتركوا لنا مسافة للتنفس بين المدرسة والبيت فلم يعبأ بنا أحد.

إنى أدعوك لتكرار المحاولة ياباسم فأنت الآن رجل فى العاشرة. إرسل خطابا بخط يدك إلى محافظ المدينة واطلب منه ألا يكرر هذا الخطأ فى مكان آخر.

لقد خطرت ببالى فكرة لتبديد صمت الليل الموحش فى ذلك المكان النائى الرهيب. قلت لهم سأغنى أغنية مصرية وجعلتهم يردون على كالكورس :

- سوا سوا يلا سوا.. نعيش على النور والهوا

وكان جميلا أن يردد ورائى هذه الألفاظ العربية أجناس أربعة بلكنات أربع مختلفة وهم فرحين مبتهجين وكأنما دبت الروح فيهم بعد صمت كالموت. ثم غنى كوماران أغنية سيريلانكية وصرنا نردد من خلفه :

- دنجرى دنجرى.. دينجاليه

كانت ضحكاتنا تجلجل فى سماء البلطيق منتصرة على الموت والحياة موحدة بين الأجناس واللغات والأديان والطبقات فى تناغم قدسى لاحد لروعته.

لقد انتابنى احساس صوفى مبهم لن تدرك الآن مغزاه ياباسم، فصرت أردد مع نفسى لفظ الجلالة عديدا من المرات، بينما كان الجميع يعتقدون أننى غارق مثلهم فى الضحك.

* * *

• ستوكهولم فى ١٩٨٠/٤/٣م

- السيد المحترم مدير عام الشركة المصرية للورق

تحية طيبة وبعد،

أعلم جيدا أن خطابى هذا لن يسعدك، وحرصا منى على مراعاة مركزك الرئاسى فلقد كتبت على المظروف من الخارج أنه لا يفتح إلا بمعرفتك.

دعنى أصارحك إننى لم أبتلع الطعم الذى ألقيته لى فى صنارة البعثة بموافقتك على سفرى دون غيرى وبذلك المستحيل لإزاحة العراقيل الإدارية والمالية التى اعترضت إجراءات سفرى.. بل يمكنك القول بأننى ابتلعت الطعم والصنارة وأن معدتى قد تولت هضمهما معا.

ومعنى هذا أن خلافنا لم ينته ولن ينتهى مادمت تعمل لحساب الشركة المنافسة لشركتنا وتستغل وقت الشركة وإمكانياتها فى خدمة هذا الغرض وتستقبل العملاء فتحيلهم من شركتنا إلى الأخرى المنافسة وتتقاضى راتبا مجزيا من الشركتين.

وأنت تعلم ياسيدى المدير أن قانون العمل بالقطاع العام يعاقب من هم مثلك بالفصل والمحاكمة.. وعلى الرغم من ذلك فإنك تستخف بعقول العاملين البسطاء وتستغل فقرهم واحتياجهم المادى فتلحقهم بأعمال مرهقة بالشركة الأخرى لقاء أجور زهيدة يفرحون بها فتضمن بذلك ولاءهم لك وتستبعد وشايتهم بك.

فاعلم يا عزيزى المدير العام أن منهم من أرسلته بمعرفتى ليلتقط لك صورة فوتوغرافية وأنت تنزل من عربتك المارسيدس وتدخل الشركة المنافسة من بابها الرئيسى خلال وقت عملك الرسمى فى شركتنا، واعلم ياسيدى أن منهم من يطلعنى على تفاصيل خيانتك الوظيفية التى تمارسها هناك لصالح جيبك أولا وأخيرا يوما من بعد يوم.

إنى لا أنسى سخريتك المريرة من النظام الاشتراكى الفوضوى الذى يحكمنا والذى تستفيد منه حتى النخاع.. إنى أرفضه لكنى لا أخونه باعتباره مصدر رزقى، بل إنى أنشد التغيير وأسعى للإصلاح من موقعى الصغير.. فإذا كنت صادقا فى رأيك ولا تتاجر به فقدم استقالتك على الفور وإلا فهذا هو إنذارى الأخير، والذى سوف أتقدم من بعده ببلاغ إلى الجهات المسئولة العليا..

أما عن الترقيات الوظيفية التى تزمع القيام بها قريبا، فإنى أحذرك أن تتخطانى إلى من هو أقل منى كفاءة

وخبرة وأقدمية لأننى لست أنوى أن أتنازل عن حقى بل سأدافع عنه حتى الموت.

سيدى المدير العام

لا أنكر أننى فكرت قبل كتابة هذه الرسالة إليك أن أؤجلها حتى تنتهى الترقيات، وأن أستبدل بها خطاب شكر على ترشيحك لى لهذه البعثة الرائعة وأرفق بها «كارت بوستال» جميل لإحدى مدن السويد المبهرة.. وأن أظل ساكتا بعد عودتى حتى أنال الترقية، ثم أعلن عن نواياى تجاهك بعد ذلك.. ولكنى تذكرت مقوله عباس العقاد «كن شريفا أمينا لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانه، بل لأنك أنت لا تستحق الضعة والخيانة» فقررت أن أحسم ترددى بالكتابة فورا إليك ودون إبطاء.

ملاحظة :

إنى أعترف بذكائك البوليسى وبحسك الأمنى المرهف، فالخادمة التى طردتها من منزلك بلاسبب على الرغم من تمسك زوجتك بها، كانت مصدر معلوماتى عما تم فى

منزلك من لقاءات واتفاقيات غير مشروعة طوال فترة عملها عندك.. ذلك أن زوجها عامل بسيط يدين لى بالمحبة والولاء.. كانت تحكى له فيحكى لى، حتى أصبح لدى ملف كامل يخصك.. ولك الآن ياسيدى أن تختار بكل حرية.. فإما تقديم الملف للمسئولين.. وإما الاستقالة من إحدى الشركتين.

* * *

«المبعوثون»

• وون إيل زى :

روى لنا المهندس الكورى وون إيل زى بإنجليزيته الركيكة المتقطعة الأوصال غير المفهومة لأحد منا قصصا عديدة عن أمجاد شعب كوريا الشمالية وبطولاته فى الحرب والسلام بحيث جعلنا نعتقد أحيانا أنه يتحدث عن إحدى دول العالم الأول بلا أدنى شك. ومما أثار دهشتى أنه كان يسخر من شعب كوريا الجنوبية وحاكمه الديكتاتور كيم إيل سونج، إذ روى لنا أن أطفال كوريا الجنوبية حين يطلبون الطعام يمنع عنهم لفترة طويلة حتى يتضوروا جوعا. حينئذ يضغط رب الأسرة على زر فتفتح طاقة من سقف

الحجرة يسقط منها الطعام.. وحين يتهافت الأطفال عليه بفرحة فإنه يقول لهم بفخر شديد إن الذى أسقط عليهم الطعام من السماء هو الزعيم العظيم كيم إيل سونج.

ومن المؤكد أنه لم يخطر ببال «زى» ولابمنامه يوما أن الكوريتين الشمالية والجنوبية ستصبحان فيما بعد دولة واحدة وإنه سوف يكون فى حيرة من أمره حين يسأله أولاده الطعام.

* * *

● هيليا:

أنجولية تستعذب الحديث بلغة مستعمريها القدامى من البرتغاليين.. تتفاخر بيننا بأنها تعمل مديرة لمكتب وزير الصناعة الأنجولى. تنسى نفسها دائما فتلبس رداء العظمة وتسيطر عليها المظهرية ويستبد بها الادعاء الكاذب فى كل شىء.

أمام موقف الأوتوبيس تعمدت أن أستفزها قائلا:

- إن لون بشرتك غير زنجى بل إنك تميلين إلى لون البشرة المصرى.

أنتفخت أوداجها تباهيا بما لا تملك ثم قالت :

- إن جسمى من الداخل شديد البياض

وقعت فى الفخ المنصوب فقلت لها بخبث مغلف بالبراءة

- أنا لا أصدق

فإذا بها تفتح أزرة قميصها وتكشف لى عن صدرها على الملأ وهى تقول

- هاهو ذا صدرى أنظر بنفسك

تمنيت أن لم أستجب لدعوتها إذا أفزعتنى شعيرات سوداء تناثرت على صدرها.

* * *

● فياندور:

كنا نتحدث عن زوجاتنا ونحن مجتمعين باستراحة المقر. قال كارل جوستاف معلنا إعجابه الشديد بزوجتى:

- إن زوجة نائبي ترسل له خطابا كل أسبوع وأحيانا خطابين.

وإذا بفياندور يندفع بلهجة فلا تفصح عن جد أو هزل قائلاً:

- أنا لا أريد التفكير في زوجتي نهائيا.

سألته في دهشة.

- لماذا؟

- لأني لست أريد أن أفكر فيما تفعله الآن في غيابي!

- ألا تحبك زوجتك؟

- ما الحب إلا احتياج مادي متبادل.

لم أمتعض لقوله إذ اعتدت عدم إيمانه بشيء في هذه الحياة سوى كوبا وكاسترو!

وقال بورش العجوز:

- إن في آسيا بلاد تؤمن بزواج الأسرة.

- كيف؟

- أى أن تكون الزوجة ملكا للزوج وإخوته الذكور وعلى كل من يريد مضاجعتها منهم فليتفضل ولا يحق لها الاعتراض.

صمت بورش، لكنى قرأت ترقبه الخفى لردود الفعل على مستمعيه فى عينيه الماكرتين. انتهزت الفرصة لأتسلل إلى عمق أبعد فى بئر فياندور الغامض الذى أبدى سعادته بهذه الفكرة فسألته:

- هل تقبل بتطبيق هذا النظام على نفسك؟

- من حسن الحظ أنه ليس لدى إخوة من الذكور.. فماذا عنك؟

- لى إخوة من الذكور لكن الله يحرم ذلك.

ابتسم فى سخرية صفراء ثم قال:

- إن الله وهم يصنعه الضعفاء والمحتاجين.. أنظر إلى حال شعب مصر الفقير الذى يسبح الليل والنهار بحمد الله، وانظر إلى شعب السويد المرفه والذى لا يذكر الله

- إن ذكره - إلا قليلا.. ترى أيهما أفضل حالا؟

نجح اللعين فى إثارتى إذ قلت له متحفزًا:

- الذى يسمع قولك لا يصدق تهافت الكوبيين على الهجرة إلى أمريكا.

قال واثقا من غضبه:

- إنهم ضحايا الإعلام الإمبريالى، ولقد سمحت لهم الحكومة بالهجرة ولكنهم سيندمون يوما ويتسولون العودة.

قال كارل جوستاف بابتسامة طفل ماكر:

- وهل ستسمحون لهم بالعودة إلى جنتهم المفقودة؟

- نعم.. لكننا سوف نعاملهم فى هذه الحالة معاملة السواح الأجانب.

* * *

رامون ألفاريز

كانت المرة الأولى فى حياتى التى أسمع فيها أن هناك دولة اسمها اكوادور، ولقد عزوت ذلك إلى جهلى فحسب.. ولكن ماذا لو علم هذا القادم من أمريكا اللاتينية العاشق لوطنه الغيور عليه بأن هذا الوطن مجهول لدى البعض؟!.. إننى لم أشعر بالغضب عندما التقيت برجل سويدى فى مكان عام لم يسمع عن دولة تسمى مصر من قبل.. صحيح إننى دهشت فى بداية الأمر لأننى كنت أعتقد أن مصر هى «أم الدنيا» كما يردد الناس فى بلادى.. لكن دهشتى تبددت احتراما لحقيقة أمر واقع، فجهل مواطن سويدى

بوجود مصر على خريطة العالم ينفى تماما أنها أم الدنيا أو أختها أو حتى خالتها، بل إنها فى حدود علمه لم تولد بعد، فكيف بالله أصبحت أما أو خالة؟!

فى إحدى الحلقات الدراسية المشتركة لاحظت وجوما شديدا على وجهه الرومانسى الحالم. سألته عن السبب فأشار إلى موظف العلاقات العامة بالمؤسسة التى أقيمت بها الحلقة قائلاً:

- هل ترى هذا الرجل؟

- نعم.. ماذا عنه؟

- ألا ترى أنه يتحدث مثلنا ويبتسم ويتناقش بطريقة عادية؟

- بلى.

طرق بقبضته على المائدة بشدة وهو يقول بعاطفته المتأججة تجاه البشر والكون والوطن:

- كم أكره قسوة هؤلاء الناس!

أشعل سيجارة غضب وقال بين دخانها:

- هذا الرجل قال لى منذ قليل بالنص الحرفى: «لقد علمت أن أبى مات اليوم»!!

- أهذا معقول؟!

- إنى أمنع نفسى من تكسير أنفه وأرجو أن تمنعنى لو اندفعت تجاهه الآن.

خطر ببالى أن أروى له رد الفعل الذى شاهدته بنفسى على وجه مارياحين أخبرها ابنها هانسون فجأة أنه قرر الهجرة من السويد فقالت له دون لحظة تفكير: أتمنى لك حظاً سعيداً.. لكن دافعا شيطانيا خبيثا منعنى من ذلك، مفضلا أن أترك رامون لغيظه، بل إنى تمنيت من قلبى أن يندفع ليضرب الرجل وألا أمنعه من ذلك الاندفاع، وليكن بعد ذلك ما يكون!

رامون شخصية لاتنسى أبدا.. لقد جاءنى يوما بعينين دامعتين يقول إنه اشتبك فى حوار مع سويدى مغرور فاتهمه بعقدة الشعور بالتميز والفوقية. قال له السويدى:

- ولماذا لا نقول بأنك أنت الذى تشعر بعقدة التخلف والدونية؟!

• مستر إسلام:

باكستانى يتميز بالكرش المنتفخ والشارب المتدلى من الجانبين ولون البشرة الهندى وكثرة الثرثرة.. أما طريقة نطقه للإنجليزية فإنها تثير تقززى.. حين تجاورت غرفتانا فى إحدى الاستراحات التى قضينا بها بضع ليال، لم أذق للنوم طعما، فقد كان شخيره زاعقا لدرجة لا تطاق. والحق إنى كنت دائم النفور منه إذ يظل يأكل ويشرب بنهم غير مسبوق كما لو كان على يقين من أن مجاعة كبرى ستكتسح العالم بعد ساعة، ثم يظل يترنح مخموراً وسط ضحكات الجميع فلا يجد شيئاً يقوله لأحد سوى أسئلته الثلاثة المتعاقبة بنفس الترتيب:

- هل أنت متزوج؟
- كم عندك من الأولاد؟
- هل هذا لحم خنزير؟

وأجيبه عن سؤاله الأخير بالإيجاب فلا ينتظر إجابتى ويروح يأكل بشراهة من هذا اللحم الذى لا أطيق رائحته، ثم يقول ولعابه يتساقط من فمه:

- إن الاسلام يحرم لحم الخنزير.

على مائدة العشاء لم يستطع مدير الشركة المضيفة أن يقاوم سؤاله لإسلام.. وإسلام لم يكن يحلو له الجلوس فى الموائد إلا بجوارى مهما تفننت فى التهرب منه، وكأن الله يعاقبنى به على ذنوبى التى ارتكبتها على مدى ستة وثلاثين عاما.

- مستر إسلام. ألم تقل لى منذ عدة أيام أنك لا تأكل لحم الخنزير لأنه حرام؟!

تظاهر أنه لم يسمعه، محاولا الانهماك فى محادثتى حول أمر تافه وقد غطى شاربه بابتسامه كالحة... قال لى السويدى على مسمع منه:

- إنى آسف لأن الخمر صورت لمستر إسلام أنه يخاطب قوما من المعتوهين.

لم يكن لدى ما أقوله لهذا الرجل وقد وضعنى مع إسلام فى بالوعة واحدة، حين واصل حديثه قائلاً:

- أعتقد أن مستر إسلام لن يدرك حتى بعد أن يعود إلى بلاده التعسة أننا لاندس أنوفنا فى عقيدة أى إنسان، بل على العكس نحترم المسلم الملتزم بتعاليم دينه ولا نقدم على مائدته ما يراه محرما.

كنت أختلس النظر إلى إسلام وقد ذبت فى خجلى بسببه حين فاجأنى بنبرة تسول متوسلة:

- إعطنى سيجارة من فضلك.

أعطيته سيجارة..

- هل يمكن أن تأخذ لى صورة بكاميرتك؟

التقطت له الصورة حين أشاح السويدى بوجهه بعيدا حتى لا يظهر واضحا بجواره.

- أرجو أن تقرضنى مائة كراون وسأعيدها لك فيما بعد.

ولأن الله عـادل فلقـد حـقت لعنتـه على عـالمنا الثـالث الجدير بدونيته.. قال لى المضيف لحظة الوداع:

- أنت رجل مـختلف.. تفكر وتتصـرف مـثلنا بموضـوعـية واختصار وتحترم عقيدتك.

- لكنى أشرب الخمر كما ترى.

قال بلهجة مرحة لم تخل من الصدق:

- كونك مسلما سيئا فهذا لا يسىء إلى الإسلام، المهم أنك صادق مع نفسك ولا تقول مالا تفعل.

شجعتنى صراحته على أن أسأله:

- هل تكرهون العالم الثالث؟

- بعضنا يشفق عليه والبعض ينظر إليه بعنصرية بغيضة.

- وأنت؟!

- أرى أنكم تستحقون ما أنتم فيه، فقد وهبتكم الطبيعة أغلى كنوزها فى الأرض وفى السماء ولكنكم لا تحبـون العمل.. ولا تجيدون إلا الكلام.

حين انصرفت كنت على يقين من صدقه فيما يختص بالعمل، أما عن إجادتنا الكلام فهذا ما أشك فيه.. إنى أدعى أننا لا نجيد العمل، ولا حتى الكلام.

* * *

فيروج:

دعتنا هيلدا أنا وفيروج التايلاندى ومحمد اللاجوى التونسى لزيارة مزرعة أسرتها فى مالمو بأقصى جنوب السويد.. تجولنا فى مزرعة نموذجية عامرة بخيرات الله.

على مائدة الأسرة جلسنا فى سعادة مع الأب وبناته الأربعة - من بينهم هيلدا - نتناول الطعام المعد بأكمله من إنتاج المزرعة. كانت الأم غائبة لسبب لست أذكره.

قبل تناول الطعام قرأ الرجل آيات من الكتاب المقدس.. وخلال الحديث كان اسم الله يتردد على لسانه كثيرا.. أما الفتيات فكن خجولات للغاية، كانت هيلدا أكثرهن جرأة وثقة. شعرت أننى أجلس إلى مائدة فى صعيد مصر،

فهكذا شأن الجنوب فى كل أنحاء الدنيا: مودة زائدة، وتحفظ شديد، والتزام بالدين.

عندما لاحظ الأب انبهار ڤيروج بثراء المزرعة قال له:

- هأنت تلاحظ ارتفاع مستوى معيشتنا ولكن يبقى السؤال: هل نحن سعداء؟

انحنى ڤيروج احتراما للرجل وقال بأدبه الجم:

- أنا لا أشك فى ذلك.

- فما هى مقاييس السعادة عندك؟

كنت أنتظر إجابة حاذقة من ڤيروج الرقيق النحيف الذى لم أشهد واحدا من المبعوثين فى مثل أدبه ودماثة طبعه وتفانيه فى خدمة الغير بلذة شديدة وبلا مقابل.. لكنه أجاب دون أن يفكر مليا وقد عاود الانحناء للرجل:

- أولها الاكتفاء المادى الذى بدونه لا يكون إشباع روحى.

ضحك الرجل قائلاً:

ـ عندما تقترب مثلى من السبعين ستدرك كم كنت مخطئا فليست حياة الإنسان الحقيقة فيما يملكه من أشياء.

ثم انحنى فيروج وهو يقول:

ـ فى بيتكم هذا أشعر أننى فى تايلاند.

ضحك محمد التونسى ساخرا من فيروج وخاطبنى باللغة العربية قائلاً فى غيظ:

ـ لماذا يكثر هذا «العبد» المنافق من الانحناء للآخرين؟

قلت له كاتما ضحكى:

ـ تلك عادته، ويبدو أن أهل تايلاند مهذبون أكثر من اللازم.

فى تلك اللحظة حمل فيروج طبقا من الفاكهة وتقدم فى أدب من محمد منحنيا يناوله الطبق!

بدا الحرج الشديد على وجه محمد ـ الذى يسميه لى دائما بالعبد ـ فاضطر إلى أن يشكره محاولا إخفاء حرجه قائلا بلغة السويد:

- تاكسو ميكيت.

فانحنى له فيروج من جديد قائلا بنفس اللغة.

- فارسا جود.

حينئذ قال لى محمد - بالعربية - وكأنما يعاتب نفسه.

- كم هى خبيثة نوايانا نحن العرب!

سمير يحيى

كنا نشاهد التلفزيون ومعنا كارل جوستاف باستراحة المقر.. كان كارتر فى ذروة الأسى وهو يعلن فشل محاولة الكوماندوز الأمريكيين فى إنقاذ الرهائن الخمسين الذين احتجزهم الطلبة الإيرانيون فى مبنى السفارة الأمريكية بطهران، وذلك على أثر اصطدام طائرة نقل عسكرية بطائرة هليوكوبتر أثناء تنفيذ العملية مما أدى إلى مقتل ثمانية جنود أمريكيين. نظر كل منا إلى الآخر مجترا ما يجول بخاطره فى صمت، ثم قال كارل:

- لو كنت مكان كارتر لسلمتهم لشاه بهلوى واستعدت رهائنى..

قال سمير يحيى العراقى:

- سوف تتخلى عنه أمريكا إن عاجلا أو آجلا.

فى هذا اليوم الخامس والعشرين من إبريل لم يكن أحدنا يعلم أن العالم كله سوف يتخلى عن الشاه وأنه سيأتى عليه يوم لا يجد فيه - على اتساع الكرة الأرضية - دولة تدبر له فراشا ينام عليه مطمئنا من انتقام آيات الله .. ولم يكن أحدنا يعلم أن السادات سوف يقوم بهذا الدور دون استشارة شعبه، بل إنه سوف يمعن فى استفزاز الإيرانيين باستقبال الشاه رسميا وبحفاوة بالغة تحت هدير طلقات مدفعية الترحيب، لتصبح إيران عدوة أبدية لمصر رغم أن الإسلام دين الدولتين..

قلت استنادا إلى مقالة قرأتها من قبل:

- إن الكراهية الشديدة المتبادلة بين خومينى والشاه ذات تاريخ ثأرى قديم.

قال سمير فى يأس.

- هكذا حال العرب والمسلمين.. تقوم معظم حروبهم على أمزجة الحكام.

ولما لاحظت صمت كارل العازف دائما عن الحديث فى السياسة سألته:

- ما رأى الملك؟

- إنى أتصور وقوع حرب وشيكة بين العراق وإيران.

كانت المناوشات بين الدولتين الإسلاميتين فى بداياتها وكان العراق هو البادئ بالتحرش.

وفى هذا اليوم نفسه: الخامس والعشرين من إبريل لعام ١٩٨٠م لم يكن أحدنا يعلم أن الحرب ستندلع بالفعل بين العراق وإيران فى نهاية سبتمبر القادم وأنها سوف تستمر ثمانية أعوام بالتمام والكمال يسقط فيها ما يزيد على مليون قتيل من كل جانب، فلا منتصر ولا مهزوم.. وإنما اتفاقية سلام على أرض أوروبية ومبيعات للأسلحة بلغت

مليارات الدولارات اشتراها المسلمون من الغرب ليتقاتلوا بها حتى تأتيهم الأوامر بالصلح.. من الغرب أيضا.

وفى هذا اليوم نفسه: الخامس والعشرين من إبريل عام ١٩٨٠م لم أكن أعلم ـ ومن أين لى أن أعلم بالغيب ـ أن سمير يحيى سوف يأتى إلى مصر بعد عشرة أعوام كمندوب عن وزارة الصناعة العراقية باحثا عن عمال ومهندسين مصريين ليسدوا العجز فى مصانع الورق العراقية بدلا من القتلى والأسرى والمفقودين العراقين فى حرب الخليج.. يقدم لى عقد عمل موقع على بياض بالأجر الذى أقرره لأسافر معه إلى العراق وأعمل فى نفس المؤسسة التى يعمل بها.. وأرفض أن أترك أسرتى التى تعيش فى سلام لألقى بنفسى فى أتون المجهول لأجل بضعة دينارات.. يقول لى فى عصبية:

ـ ألا تريد أن ترفع مستواك المادى؟.. منذ عشر سنوات وأنت كما أنت، حتى العربة الصغيرة لم تتمكن من شرائها ـ إنك إنسان عديم الطموح!

فى مساء اليوم نفسه التقيت بنجيب محفوظ فى منتداه الصيفى على شاطئ سان استفانو وسألته المشورة فقال لى:

- إنها فرصتك الأخيرة قبل أن تفرض عليك الشيخوخة الكسل وفتور الهمة.

- لكن أسرتى ترفض.

- وأنت؟

- أنا كعادتى متردد.

- فى هذه الحالة لا تذهب، ولكن عليك بتحمل مسئوليتك كاملة تجاه أسرتك.

وبعد سفر سمير يحيى بعدة أشهر كان غزو العراق للكويت.. وقرأت فى الجرائد أن المؤسسة الورقية التى يعمل بها قد دمرت عن آخرها بقنابل عاصفة الصحراء الأمريكية تحت رعاية الأمم المتحدة ومجلس الأمن والأشقاء العرب الذين تشابكوا بالألفاظ والأيدى فى مؤتمرهم الفاشل لوقف الغزو.

بعثت برسائل عديدة على عناوينه المختلفة التى أعطاها لى ولم يأتنى رد. تذكرت لقائى الأول به فى الفندق الدانماركى حين دعانى فى غرفته وغمرنى بكرمه وأسرنى بعظيم مودته وقال لى:

- حين تحتاج الى مال فلا تتردد فى اللجوء الىّ.. إننى لا أعرف كيف أتخلص منه! وأغلب ظنى أنه راح ضمن من راحوا ضحية أمزجة حكامنا العرب.

مستر إيجيبت

.. وأحيانا ينادوننى «مستر سادات».. وقليلا ما نادونى بلقبى الحقيقى «سالم». إنه لشىء مثير للمتعة حقا أن أتحدث عن هذا الشخص على الرغم من سخريتى - وسخرية الآخرين - من هذا الذى يتحدث كثيرا عن نفسه، خاصة حين يكيل لها الفخر والمديح أو ينسب لها ما لا تستحقه من صفات الحق والخير والجمال.

وحتى أهرب من هذا المطب فسوف أتحدث فقط عن عيوبى وسيئاتى لكى أدخل السرور على قلوب الجميع وأبعد عن نفسى عيون الحاسدين.

إننى شخص شديد الحساسية تجاه الناس والأشياء والمواقف لدرجة عالية وهبنى الله جهازا حساسا يسمونه فى الغرب Sensor ووضعه فى شبكتى العصبية بحيث إننى ما أن أنظر إلى الشخص أو أستمع إلى كلمات قليلة منه أو أشهد له موقفا معينا.. وأحيانا تتجمع الظروف الثلاثة - حتى تتحرك قرون استشعار الجهاز لتعطينى إشارة فورية إن كان هذا الشخص كاذبا أم صادقا.. نذلا أم شهما. أصيلا أم خسيسا.. وما إلى ذلك من الصفات الإنسانية المتناقضة.

لقد استشرت العديد من الأطباء النفسانيين محاولا العثور على وسيلة لنزع هذا الجهاز الكاشف من نسيجى العصبى دون جدوى.. إنه يفسد حياتى بشكل مروع: فهو الذى جعلنى أمسك بيدى فى دقائق معدودة بمفاتيح شخصية بورش وشخصية كارل وبقية المبعوثين، وهو الذى جعلنى أتعامل معهم على ضوء معطياته العاجلة والتى ثبت للأسف - مثلما يثبت دائما - أنها صحيحة.

من هنا أصبحت فى نظر الكثيرين شخصية استفزازية، يشعر من يواجهنى أننى أعريه تماما وأجرده من مظاهره وأقنعته وتمويهاته الاجتماعية المتقنة فى زمن قياسى.

أحيانا أتعجب حين ألاحظ أن بعض الناس يحبوننى كثيرا.. ولقد ازداد تعجبى من جهة وإعجابى بنفسى من جهة أخرى حين لاحظت ذلك التآلف السريع الذى حدث بينى وبين السويدين، فالكثيرون منهم قالوا لى «إنك تكاد تكون واحدا منا».. «إننا نحبك لأنك صريح وشجاع».. وكثيرا ما سمعت كلمات إطراء لأننى من مصر ولأن السادات المصرى قام بمبادرة السلام ولأننى لا أدس أنفى فما لا يعنينى من أمور الآخرين..

.. وهكذا أيها السيدات والسادة سحبنى قلمى دون أن أدرى إلى «باراجراف» كامل من المديح والإطراء، وبذا أكون قد وقعت فى المحظور الذى عشق البشر أجمعين أن يقعوا فيه، وقليلا ما يلومون أنفسهم على ذلك.

إن حساسيتى التى تحدثت عنها أوقعتنى فى أزمة ثقة شديدة بالنفس، فأنا شرقى بروحى، غربى بعقلى.. ذلك

أمر لا شك فيه ولاجدال.. ولكن اجتماع هذين النقيضين فى قلب رجل وعقله، فضلا عن أن هذا الرجل - كما يصف نفسه - شديد الحساسية، يؤدى إلى وقوع مخاطر داخلية مخيفة قد لا يستبعد أن تكون نهايتها مستشفى الأمراض العصبية.

على الرغم من ذلك فأنا أدفع عمرى فداء لهذه الشخصية الرائعة.. الشرقية بروحها.. الغربية بعقلها!

• بقية المبعوثين:

لم أشأ الكتابة بصفة خاصة عن بقية أعضاء البعثة من البرازيل ونيجيريا والفلبين والبرتغال وسريلانكا وغيرهم.. ذلك أننى اكتشفت فجأة أنه لا مبرر للكتابة عن كل منهم على حدة، فكلهم فى واقع الأمر ينتمون إلى فكرة إنسانية واحدة.. هى نفس الفكرة التى ينتمى إليها كل من سبق أن كتبت عنهم بتلقائية من قبل، كل على حدة قبل أن أنتبه إلى هذه الفكرة.

تقول تلك الفكرة بأن هناك أناس شاءت أقدارهم - زمانا ومكانا - أن يكونوا من أهل العوز والحرمان، بغض النظر عن الأسباب الدنيوية التى قد تساير القدر ولا تناقضه .

هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى المفاضلة أو التمييز، فإن الاختلاف الوحيد الذى أراه فيما بينهم لا يتحقق إلا فى لون الجلد.. وإنى أكاد أجرؤ على القول بأن العوز والحرمان والشعور الدائم بالاحتياج إلى الغير قد وحدت جميعا بين ملامح وجوههم ونظرات عيونهم وانكسار أرواحهم وتمرد نفوسهم.

لماذا أكتب عن النيجيرى منفصلا عن الأردنى وكلاهما يعيش عل معونات الغير وينظر إلى كلينتون وكأنه خليفة الرب على الأرض، وإلى نساء الغرب وكأنهن حوريات الجنة، وإلى الطعام الفاخر والملبس الأنيق والسكن الخصوصى وكأنها الأحلام المستحيلة؟!

لقد رأيت فى منامى أن أبغاء العالم الثالث ممثلين فى هؤلاء المبعوثين قد فوضونى نائبا عنهم أتحدث باسمهم

لنفسى وللأمم المتحدة والبرلمان الدولى وجمعيات حقوق الإنسان فى كل مكان، ولقد قبلت تكليفهم بفخر شديد فوضعوا على رأسى عمامة تشبه التاج وقلدونى سيف أثريا ثقيل الوزن لا يقتل ذبابة، وألبسونى قميصا حريريا ملونا وسترة حديثة الصنع وربطة عنق ما رأيت أجمل منها، لكنهم تركوا نصفى الأسفل عاريا تماما وألقونى من قاربهم المتهالك العتيق إلى بحر الأحلام، وقالوا لى:

- غُص يا بطل الأبطال فى عمق الإنسان وأرينا إن كنا كسائر الخلق جديرين بالحياة أم أن الموت لنا رحمة ونجاة!

* * *

حدثتنى نفسى عنهم فقالت لى إن الشر ليس وحده البلاء، وإنما الخير أيضا بلاء، والابتلاء بالخير كأن تولد فى سويسرة أو بالشر كأن تولد فى تونس، ما هو إلا مجرد امتحان أو اختبار، فإن نجحت فى سويسرة أو تونس فقد أبليت بلاء حسنا، وإن فشلت فى أحداهما فقد أبليت بلاء سيئا، فكونك من أبناء العالم الثالث ـ هكذا حدثتنى نفسى

حين حدثتها عنهم - ليس شيئا مذموما فى حد ذاته، كما أن كونك من أبناء العالم الأول ليس شيئا ممدوحا على إطلاقه فهناك عباقرة أفادوا البشرية جاءوا من العالم الثالث وهناك مجرمون أنجبهم العالم الأول فكانوا وبالا على البشر أجمعين، ولما ألقى بى الموج إلى شاطئ جزيرة مانهاتن تلقفنى على باب الأمم المتحدة ذلك الموظف البيروقراطى المصرى العجوز ذو التجاعيد المتشابكة على وجهه، وقبل أن أقول له شيئا راح ينفى عن نفسه المسئوليات كافة «فالدول الغنية لا تدفع والدول الفقيرة لا تعمل وإنما تتناكح وتتناسل شعوبها بحماس شديد اعتمادًا على أن الله هو الرازق، وهم يتحدثون عنه كثيرا لكنهم لا يستفيدون من عطاياه، بينما لا يتحدث الآخرون عنه إلا قليلا ويعملون كثيرا مسخرين عطاياه وأسبابه فى خدمة أنفسهم، والحروب تنفجر فى كل مكان والتكتلات الاقتصادية الكبرى وضعت كثيرا من دول العالم الثالث أمام احتمال المجاعة».. وأصابنى قرف من حديثه على

الرغم من أننى أشفقت عليه وتركته لمذاكراته وأوراقه وقلت له فى سرى:

- إما أن يعينك الله وإما أن يأخذك ويريح منك العالم ويأتى بدلا منك بشكّاء آخر!.

ولقد أصابتنى دهشة حين اكتشفت أن الموظف الذى يرأس برلمانات العالم مصرى هو الآخر فقلت يا سعدنا يا هناءنا وتذكرت المثل الشعبى القائل: «من بره هلاّ هلاّ ومن جوّه يعلم الله» ولم أستطع مقابلته لأنه - يا عينى - كان مشغولا بقضايا العالم، ثم التقيت بهيئات عديدة تضطلع بالمحافظة عل حقوق الإنسان فحدثتهم عن السجون والمعتقلات والتعذيب وتزوير الانتخابات وتقديس الحكام وتأليههم فقالوا لى إن حرية الرأى مكفولة لكل إنسان بحكم قانون الحريات السماوى ودستور الحريات الأرضى ففتشت فى سماء العالم الثالث وأرضها عن صاحب رأى حر نجا بذيله مما سبق ذكره فلم أعثر على أحد، وكان كل من قابلته منهم إما مقطوع الذيل أو اللسان

أو الخلف أو اليـد فـصـحـوت من حلمى فـزعًا مـرتجف الأوصال لأجد المبعوث السيريلانكى يقول لى متوسلا:

- من فضلك إعطنى سيجارة.

* * *

الجزء الثانى

الإسكندرية ١٩٩٥م

الكسندر فى الإسكندرية

اسمه الكسندر محمد الراوى. شاب سويدى رقيق فى العشرين أرسله أبوه من هناك ليدرس اللغة العربية والفنون المصرية لفترة محددة، وأوكل إلىّ مهمة تسكينه وإطعامه والإشراف على دراسته والإنفاق عليه بوجه عام، وبعث لى شيكا يحمل رقما عاليا جدا، يستجلب شياطين الأرض ووسوسات النفس الأمارة.

محمد الراوى خريج دفعتى فى جامعة الإسكندرية، وإلى جانب ذلك فقد كان واحدا من أهم أصدقائى فى مرحلة الشباب لولا أن أبعده جنونه عنى عمرا طويلا.. كان

طموحه الفنى هائلا يفوق حدود مصر، مما جعله يرتكب العديد من الحماقات والمغامرات التى لا يجرؤ الكثيرون عليها حتى يسافر إلى الخارج، فيبيت فى الملاجئ والطرقات، ويرتدى الأسمال البالية ويجوع أياما وليالٍ ويعمل فى أحط المهن بأكثر من دولة أوروبية، ويطارده حرس الحدود من دولة إلى أخرى، ليصبح اليوم واحدا من أعلام التصوير السينمائى الحديث فى العالم الغربى بأسره. وهو يمتلك عدة استوديوهات تصوير تعمل جميعها بالكمبيوتر من الألف إلى الياء، فضلا عن احتوائها على مبتكراته الخاصة فى مجال العدسات، والتى تتصارع كبريات الشركات على اقتنائها منه.

ولقد درب ابنه على العمل معه فى هذا المجال حتى يتسلم المشعل من بعده، ولكنه كلما هوجم بلحظة تأمل عابرة يخلو فيها من عمله إلى نفسه، انهمرت الدموع من عينيه حزنا على ضياعه من مصر وضياع مصر منه.

إنها حالة من الاغتراب لا يعرفها إلا من يكابدها ويعانى قسوتها ومرارتها ويكتوى بنيران آلامها الحارقة، فهو يعشق وطنه ولا يريد لابنه أن يكون سويديا مائة بالمائة، وإنما يريد له أن يأخذ «لطشة» الروح المصرية بحلاوتها وطراوتها وجمالها وخفتها.. وفى سبيل احتفاظه بهذه «اللطشة» المحببة والتى لا يستطيع العيش بغيرها، فإنه احتفظ فى السويد بشرائط الكاسيت المصرية لمطربى وجه قبلى وبحرى المتخصصين فى مدح الرسول وأغانى الشعر الصوفى والأناشيد الدينية، كما يحتفظ بتقاسيم عود للسنباطى وفريد الأطرش وعبدالوهاب وأغانى لأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وتسجيلات نادرة لشيوخ المغنى والطرب فى مصر.. يسمعها ويبكى.. ولكن لا فائدة!!.. فقطار الرزق قد تحرك به منذ زمن بعيد وتوقف عند محطة السويد إلى أجل غير مسمى.

اصطحبت الولد الإسكندرانى الجذر إلى كوم الشقافة وكنا فى شهر رمضان المبارك. بعد أن انبهر بعامود السوارى وأخذ عشرات الصور لتلك المنطقة التاريخية

المحتوية على العديد من الآثار المصرية اليونانية والرومانية والفرعونية؛ قلت له تعال معى الآن لترى الشعب المصرى الحقيقى الذى أنجب أباك.. تراه فى الأزقة والحوارى وليس فى فنادقه وشوارعه الكبرى التى يمر منها موكب المحافظ كل يوم ولا يعرف سواها.

كان مدفع الإفطار على وشك الانطلاق، وإذا به يفتح فمه على آخره وهو يرى عشرات الموائد الجارى إعدادها بسرعة البرق عل جانبى الطريق، والعامرة بالخضروات واللحم والفاكهة وقمر الدين والكنافة والقطايف!!.. أصابه ذهول شديد وهو يرى بعض العابرين مصادفة حين يرون هذه الموائد فيجلسون إليها دون سابق ترتيب وفى طمأنينة شديدة كما لو كانوا يجلسون فى بيوتهم.

قال لى إنه لأول مرة فى حياته يرى مطعما بطول الشارع وعرضه وعلى جانبيه، فأين مقره وأين صاحبه الذى يعمل عنده كل هذا العدد الكبير من العمال؟.. فقلت له:

- الرحمن!

ولما شرحت له القصة كان يصرخ بالفعل من شدة دهشته.. تلك الدهشة التى ازدادت وتضاعفت عندما شعر أبناء كوم الشقافة الجدعان أنه أجنبى فبدءوا يتخاطفونه كما لوكان كنزا.. كلٌ يريد ضمه إلى مائدته - وهى ليست مائدته - ليأكل معه ويشرب، ثم عاد يسألنى:

- ولكن من الذى سيدفع ثمن كل هذا الطعام؟

فأجبته مرة ثانية بنفس النبرة الهادئة، والتى لا أنكر أنها كانت تحوى قدرا من التشفى فى حضارة الغرب:

- الرحمن!

قال وهو لا يزال غير مصدق لما يرى ويسمع وكأنه فى حلم:

- إنكم شعب غريب جدا.. أنا لا أفهم أبدا هذا الذى يحدث أمام عينى!

الكسندر لا يفهم بالطبع كيف ينصهر شعبنا بدفء عاطفته فى بوتقة الحب الإنسانى الجميل، مثلما لا أفهم

أنا كيف يحاول اليوم بعض المجرمين تحويل هذا المصهور المقدس إلى بارود وكراهية ودم. قلت بثقة:

- عندما تعود إلى السويد سل أباك فسوف يشرح لك معنى ما تراه.

قال الولد بحب وامتنان:

- إنى أشكرك يا أستاذى فقد هزمتم الروبوت المزروع فى روحى وبدأت أشعر أننى إنسان عاطفى.

كان من الطبيعى أن أغمس الطعام أمامه بيدى فلا شوك ولا سكاكين وإنما ملاعق للأرز فقط، ففعل مثلى وكانت الفرحة تغمره وتزيد من رقته ودماثة طبعه، حتى أنه بدأ يطلق النكات مثلنا.. وأكلنا وشربنا مجانا ومازال الكسندر غير مصدق..

ثم انطلقت أجهزة الراديو وشرائط الكاسيت من المقاهى والدكاكين والبيوت تتناحر بأعلى الأصوات فى حرب تنافسية طاحنة. توقعت أن يشكو لى من شدة الإزعاج ولكنه لم يفعل بل كان يعطى أذنيه للأصوات محاولا الربط بينها وبين ما تعلمه حتى ذلك الحين من اللغة العربية.

بعـد قليل دبت الحـيـاة فى الأرض فـغـمـرت العـربات الشـارع.. أذهله أن يتحدث السائقون إلى بعضهم البعض من نوافـذ سـيـاراتهم أثناء سـيـرها فى الطريق المزدحم بالناس والجائلين والأطفال والنساء.. كانت تلك الأحاديث ودية عابرة أحيانا كإلقاء تحية أو تعليق على شئ ما، كما كانت فى بعض الأحيان مشاجرة كلامية بألفاظ بذيئة لكسر إشارة أو لمحاولة خطف الطريق!

كنت خجلا مما يرى الكسندر ولكنى فوجئت به يقول:

- إن الإنسان الذى يقود العربة فى السويد إنسان آلى، لا يمكن أن ينظر إلى قائد العربة المجاورة أو حتى يحييه ولو بابتسامة مغتصبة، ولو انفجرت من حوله عدة قنابل.

لم أصدق أنه نجح بهذه السرعة فى التعايش مع تلك الفوضى الماثلة أمام عينيه والتى لا تختلف كثيرا عن مشاهد الجنون فى الأفلام الواقعية.

إنه الواقع العبثى اليومى لمجريات الأحوال فى بلادنا كما هو بخيره وشره..

لكنى أشفقت على الشاب لأن جوعه العاطفى الشديد الذى جاء به من اسكندنافيا الجميلة جعله يغفر لنا كل خطايانا، حتى أنه تمنى ألا يغادر مصر إلى الأبد.. لقد هان عليه عقله عندما دخلنا فى قلبه فبعثنا فيه الدفء والحياة..

وتفكرت قليلا فى حيرة الإنسان وشقائه المقدر له.. فنحن نشقى بالعاطفة وهم يشقون بالعقل، وكل منا يحسد الآخر على مصدر شقائه!

* * *

«منحنى العمر»

الشيخ عبدالسلام رجل طيب يفيض وجهه بنور سماوى يشرق بالأمان والحنان، يقوم بجمع القمامة والقاذورات والمخلفات العفنة المتخمرة فى أرجاء المصنع والناتجة من العمليات الصناعية الكيمائية وقد تعرض مرة للإصابة بالتيفود من جراء ذلك وبقى بالمستشفى عدة أشهر حتى كتب له الشفاء وخرج منه جلدا على عظم. وكان الشيخ عبدالسلام قد تحدانى قبل سفرى إلى السويد منذ ما يقرب من ستة عشر عاما أن أضاجع امرأة هناك. قال إنه يخشى على من عذاب النار، وإنه غير واثق فى استجابتى

لنصائحه فقرر أن يعمل لى عملا من السحر يجعلنى فاقد الرجولة طوال فترة إقامتى بالسويد. ولقد قبلت التحدى وانتهت المعركة بفوزه فوزا مبينا وما أن عدت إلى مصر حتى استقبلنى بابتسامة الواثق المنتصر مما جعلنى أتميز غيظا واستغل سلطتى بتوقيع جزاء عليه لخطأ بسيط ارتكبه دون قصد منه أثناء تأديته لعمله. فى ذلك اليوم هددنى باصطحاب أبنائه العشرة إلى منزلى لأطعامهم ما لم أسحب الجزاء.

ونحن اليوم فى الأسبوع الأخير من عام ١٩٩٥م وأحوال الدنيا قد اختلفت كثيرا عما كانت عليه منذ عام ١٩٨٠م، ولأنها دنيا فحصرها صعب وأغيارها لا قانون يحكمها ومنطق أحداثها لا منطق له، فالسادات الذى أحبه شعب السويد المسيحى قتله إرهابى مسلم، أما شريكه فى جائزة نوبل للسلام والمدعو مناحم بيجين فقد مات حزنا على وفاة زوجته «عليزه» ويقال إنه مات حزنا على نجاح السادات فى إقناعه بالسلام حين دق أول إسفين لتدمير حلم إسرائيل الكبرى، ولقد أحيل الشيخ عبدالسلام إلى

التقاعد منذ عدة سنوات، ولما علمت بمرضه الشديد ذهبت لزيارته فى بيته المتواضع ففرح بى كثيرا وقلت له محاولا انتزاع البسمة منه:

- لم أعد اليوم بحاجة إلى عمل من أعمال السحر يا شيخ عبدالسلام.

لم يفهم مقصدى لشدة إجهاده على الرغم من حضور بديهته فقلت له:

- اليوم لم أعد أخشى من عذاب النار حتى لو ذهبت فى بعثة إلى الهند.

ومنذ عدة أسابيع قتل إرهابى يهودى الجنرال رابين رئيس إسرائيل الذى وقع اتفاقية سلام مع ياسر عرفات على الرغم من أنه وصفه من قبل بالإرهاب الفلسطينى، كما وقع رابين اتفاقية سلام مع الملك حسين ذى الألف وجه والذى مازال يحكم الأردن منذ أكثر من ربع قرن وقد بكى وزوجته بحرقة فى جنازة رابين وفهم الشيخ عبدالسلام ما أعنى فأبدى تعجبه قائلاً:

ـ كيف يحدث هذا وأنت مازلت شابا فى الثانية والخمسين؟!

ـ لست أدرى تماما ولكن الأسباب المحتملة لا حصر لها.

لحظت عليه اهتماما فائقا بهذه المسألة وبدت علامات القلق الشديد على وجهه وكأنه يود مواساتى وتعزيتى فى فقد عزيز.. وكان السادات قد وقع من قبل اتفاقية سلام اهتز لها العالم ثم وقع صدام حسين وثيقة يعترف فيها باستقلال دولة الكويت ويعلن فى صراحة تراجعه عن قراره المشئوم بضم محافظة الكويت إلى محافظات العراق وذلك بعد أن قامت جيوش أوروبا وأمريكا بتدمير بلاده تدميرا شاملا بمباركة من أشقائه العرب الذين عجزوا بمفردهم عن إثنائه عن عزمه منذ البداية، وعلى الرغم من ذلك فإنه مازال يحكم العراق المحاصر اقتصاديا بقرار من مجلس الأمن الأمريكى والأمم المتحدة الأمريكية ـ حتى الآن.. والشيخ عبدالسلام الذى يخطو بحزم إلى مقبرته يهوى الحديث عن النكاح كما لو كان شابا فى العشرين ويفيض فى ذكر خبرته الشرعية بهذا الشأن فيقول:

ـ حكى على بن عمر رضى الله عنهما وكان من زهاد الصحابة وعلمائهم إنه كان يفطر من الصوم على الجماع قبل الأكل وربما أنه جامع ثلاثا من جواريه فى شهر رمضان قبل العشاء الأخيرة، كما يقال عن الحسن بن على أنه كان منكاحا حتى نكح زيادة على مائتى امرأة.

قلت له كى أستزيد من اهتمامه:

ـ لكن النكاح يجعلنا نركن إلى الدنيا وننسى خالقها، وفى ذلك قال إبراهيم ابن أدهم عليه رحمة الله: «من تعود أفخاذ النساء لم يجىء منه شىء»!!

وقد قتل الإرهابيون فى الجزائر حوالى مائتى كاتب وصحافى ومفكر كما قتلوا فى مصر رئيس مجلس الشعب المكروه وكاتب علمانى يدعى فرج فودة وأخيرا حاولوا قتل الروائى العظيم نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل، لكنه نجا بأعجوبة وقد أصبحت يمناه فى حكم المشلولة فختموا على الأيام الباقية من حياته المجيدة بالحسرة والدهشة والمرارة واليأس والألم.

أفاق الشيخ عبدالسلام ونشطت دورته الدموية وقال بحماس رائع:

- أخشى أن تكون جاهلا بفوائد النكاح!

- الحق أنى لم أهتم إلا بلذته، فهل هناك فائدة أجمل منها؟!

- للنكاح يابنى فوائد خمس هى الولد، والتحصن من الشيطان بكسر الشهوة، وترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة لإراحة القلب وتقويته على العبادة، ثم التفرغ للعلم والعمل، وأخيرا مجاهدة النفس باحتمال الأذى من النساء والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين.

قلت له ضاحكا:

- وما جدوى أن أكون عالما بفوائد النكاح دون أن أقوى عليه.

- أنا أشك فى ذلك.

ـ هذا أمر واقع.

قال بثقة قاطعة.

ـ إذن فعليك بالزواج من امرأة أخرى حتى يهب دمك من ركوده.

وأما بقية أخبار العالم فلا تختلف كثيرا فى معظم مواقعه الجغرافية عما سبق ذكره من قتل واغتيال وتدمير وأزمات اقتصادية وديون متراكمة ودخول منخفضة وأسعار نارية، غير أن دولة الروس قد تفككت وانهارت وألقوا بتمثال لينين على الأرض وأصبح فكر ماركس وانجلترا مدعاة للسخرية والتندر، أما دولة الألمان فقد اتحدت من جديد وسقط الحائط الفاصل بين دولتيهما القديمتين وانتشر فى أرجاء العالم عاهرات الروس وعلماؤهم يبيعون الأجساد والمعادلات الرياضية الذرية بأبخس الأثمان..وانفجرت فى الضحك عند سماعى اقتراح الشيخ عبد السلام المنكاح الذى أصبح مجموع أبنائه وأحفاده يربو على الثلاثين، وبينما كنت أضحك فقد كنت فى واقع

الحال منصرفا عن نفسى إلى نفسى أجتر غرابة الشعور بطعم الحياة فى غياب ذلك الفعل الغريزى الفطرى أو حتى فى اضمحلاله التدريجى. إن اندحار هذه الشهوة الرائعة أمر بالغ التعقيد لا يسهل استيعابه فى سلام إلا على نفس شديدة الشفافية والصفاء تتجاوز فى طاقتها الروحية إمكانات البشر.. فالطعام والشراب والعمل واللهو والسهر والمرح والقوة فى القول والقوة فى الفعل والقدرة على الإنجاز والرغبة فى النجاح والسعى فى طلب المال والجرى وراء كل ما هو مشروع أو حتى غير مشروع صارت كلها حوافز وهمية لحياة أكثر وهما بعد نزول منحنى العمر إلى مستقره الأخير، وعلي الرغم من أن العينات البشرية التى وضع على أساسها فرويد نظريته كانت من المرضى وليست من الأسوياء إلا أنه لا يسعنى غير الاعتراف بعبقرية ذلك اليهودى المريض النفس، وإلا فأين راحت أحلام الحب الوردية وأنغام الموسيقا على ضوء القمر ووشوشات الموج وهمسات الحنين وحفيف الشجر وقبلات الشفاه الساخنة وأحضان الدفء والرغبة والطمأنينة

وسعادة القلب بضرباته المضطربة لحظة اللقاء.. أين راح هذا كله يا شيخ عبد السلام؟!..

- تريدنى أن أعلن انهيار مملكتى على الملأ؟!

- استمع إلى نصيحتى وإلا مت حيا قبل الأوان.

أما اليوغوسلاف من بعد «تيتو» فقد انشقوا على أنفسهم فى حرب عنصرية دينية ترفض وجود كيان إسلامى فى قلب أوروبا وقد حل الإسلام محل الشيوعية عند أهل الغرب الذين لا يعرفون الحياة بغير عدو، فقام سفاح صربى عتيد بذبح آلاف المسلمين وبقر بطون نسائهم واغتصاب بناتهم ودفن معظمهن أحياء على مرأى ومسمع من الدولة الأمريكية التى قررت أن تحكم العالم بالعدل الأمريكى، ويقال أنها قد جمعت منذ أيام بين المتقاتلين على مائدة واحدة للتفاوض بعد أن تحقق غرضها المكشوف.. وقلت للشيخ عبدالسلام إن مشكلتى هى فقدان الحافز وهبوط الهمة وانهزام الروح وإن مارلين مونرو لو بعثت حية من جديد وجاءت تطلب ودى فلن أستطيع، وكان

العقيد معمر القذافى قد تطاول يوما على باعثة النظام العالمى الجديد فشنت عليه قاذفاتها المقاتلة هجوما كاسحا أسفر عن مقتل اثنين وأربعين ليبيا بريئا من بينهم ابنة العقيد بالتبنى، هذا وقد نسى العالم ما سمى من قبل بالانتفاضة الفلسطينية أما أنا فنسيت انتفاضة القلب والروح وارتعاشة الجسد إذ أصابنى الملل من الحياة فى مقتل، كما نسى العالم ما سمى بمذبحة صابرا وشاتيلا فى لبنان، لكن وزير الخارجية السورى «خدام» أمسك بصورة «شامير» رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الحين ورفعها بيده فى مؤتمر عالمى شهير قائلا إن هذا الشخص «Wanted»، كما أعلنت الجريدة الدولية الحاملة لصورته - كزعيم لعصابة إرهابية، والمرأة الشرقية الساذجة مهما بلغت درجتها العلمية لا تلبث بعد الأربعين أن تتحول إلى سوط يلهب ظهر زوجها بالمطالب والمشاكل والمنغصات، وتظل تطبخ وتأكل وتنام وترعى الأطفال فتنتفخ بطنها ويتهدل ثدياها وتثقل عجيزتها ويطول لسانها ويزداد غباؤها وتهجرها الأنثى فيجد الزوج نفسه أمام كائن آخر غير

الذى عرفه فيها من قبل، وبينما كانت أنديرا غاندى تنتقل فى أمـان من منزلهـا إلى مكتبهـا، اغتالهـا جنديان من حرسها الخاص ينتميان إلى طائفة السيخ وانتشر مرض الإيدز فى العـالم وأصبحت إسرائيل هى الدولة الذرية الوحيدة فى الشرق الأوسط وقلت للشيخ عبدالسلام.

- من الأفضل أن أزهد بيدى فى الدنيا لا بيد عمرو.

- هذا هو الانهزام بعينه وسبحان من حلل الحلال وحرم الحرام.

ثم أصابته غفوة مفاجئة فنام على نفسه وهو يحادثنى. انتظرت أن يصحو حتى أودعه.

وقبضت أمريكا على الجنرال أورتيجا فى قصره ليتحول من حـاكم يلعب بملايين الدولارات المخدرة إلى سجين يحمل رقما صغيرا فى زنزانة أمريكية.. ولو لم أجد لنفسى مخرجا من ورطة زهدى فى النكاح لا نحبست فى زنزانة نفسى وانطويت واكتأبت وحزنت ومت حيا كما قال الشيخ عبدالسلام.. ها هو يصحو فجأة ليسألنى:

- هل تعمل بنصحيتى وتتزوج؟

قبل أن أودعه كنت أستجمع شجاعتى لأسأله ماذا فعل بى حين كنت فى السويد حتى صدقت نبوءته، لكنه فاجأنى بسؤاله فقلت له:

- إنى لست بحاجة إلى الزواج يا مولاى.

- احذر من الحرام.

- لا تخف، فإنى أحلم بعشق عظيم.

ثم لم أجد بنفسى رغبة فى السؤال الذى جئت أزوره من أجله متعللا بمرضه، وقلت لنفسى متعجبا كيف تنشغل بماضٍ ولى واندثر عن حاضر يئول فوراً إلى الماضى بينما يبشرك المستقبل بما يغنيك عن العالمين؟!

* * *

«ڤيرينا مازالت تذكرنى»

وصلنى خطاب من أوروبا. ظل على مكتبى لساعات طويلة دون أن أشعر بحافز على فتحه، إذ استبد بى شعور بأن فتحه أو تركه مغلقا أمران متساويان، ثم تحول هذا الشعور بعد ذلك إلى رغبة فى تمزيق الخطاب دون قراءته مادام الأمران متساويين.

* * *

فى لحظة صفرية من عمرى المستدير على الأرض الكروية، تراءت لعينى الخيوط المضببة التى تشدنى فى خبث إلى العالم وتربطنى به، فهالنى ما لحق بها من تمزق

فى البعض، وتشابك عنكبوتى فى البعض الآخر، حتى أن بعض الخيوط كادت أن تفقد تواصلها الجذرى معى، بل إن البعض منها قد قطع، والبعض قد استطال وتمطى وتثاءب واسترخى فنام.

والحق أنى فرحت كثيراً بهذا الاكتشاف غير المنتظر، خاصة أننى علمت من رجل ذى معرفة أحترمه كثيراً أن المتشبث بالدنيا لا يختلف كثيرا عن الكلب المتشبث بجيفة!.. صحيح أننى تقززت من التشبيه فى بداية الأمر عندما تذكرت بعض ما حظيت به من نعم الحياة وملذاتها، لكن عدد الخوازيق الصلبة التى أقعدتنى عليها الدنيا بعد ذلك جعلتنى أصدق هذا الرجل.

فمنذ ولدت وأنا مجبر على التعامل مع خيوطى برفق وحذر أو بعنف وشجاعة، كل فى حينه وطبقا لمقتضيات الحال وضرورات الحياة من دم وهواء وماء وفن ومحبة ومعرفة وتوق إلى الحرية. لكن الحقيقة التى لم يكن أمامى بدّ من مواجهتها هى أن معظم الخيوط قد تهرأت بفعل

الزمن وهول الأحداث فأصبح من المتعذر على أحد أن يذكرنى مثلما أصبح من المتعذر على أن أذكر أحدا.

وكان السؤال الذى يؤرقنى دوماً هو:

- هل تستحق الحياة كل هذا العناء وكل تلك المكابدة؟

غير أننى لم أتوصل إلى حقيقة مؤكدة، ذلك أن الحياة ظلت تراوغنى كلبؤة حرون، فتارة تلقى إلى بلذة فأنطلق وراءها فى نهم وحماس دونما تقصير فى جهد أو عناء، وتارة تشدنى بعنف لتضعنى رغم أنفى على خوازيقها، وما أن أنجح فى الإفلات منها حتى أقول لنفسى وأنا أداوى جروحى النازفة.

- اللعنة عليها .. إنها لا تستحق الاهتمام!

وعلى الرغم من ذلك فقد قررت مواجهة لحظتى الصفرية بشجاعة جراح لا يعرف التخاذل، وقررت التخلص من الخيوط العنكبوتية المتشابكة، وإزالة ما سببته من تعقيدات للخيوط الأخرى، واستئصال الخيوط المهترئة

التى فقدت اتصالها بجذورها، طالما أن انقطاعها عنى لم يختلف كثيرا عن اتصالها بى.

وبالطبع لم يخطر ببالى أن أفكر فى إنشاء شبكة خيوط جديدة، فذلك خارج عن إطار لحظتى الصفرية وعمرى المستدير، فضلا عن أن الخيوط الكائنة جميعا ليست من صنعى، وإنه ليس بمقدور كائن بشرى أن يدعى - فى صفاقة أو تواضع - القدرة على أن يصنع بنفسه خيطا واحدا من تلك الخيوط... قد يمكنه فقط أن يرتقها أو يغذيها بما ينقصها من أسباب البقاء المتصل بالأصل، أما من يتورط فى اعتقاد مخالف، فقد ينتهى به المطاف إلى الهوس!

على ضوء ما سطعت به اللحظة من بريق التمع فى ذهنى وتوهج، كان لابد أن أقوم بأفعال بهلوانية منطقية، وأن أقول كلاما جميلا غير معقول، وأن أذهب ماشيا على يدى إلى بعض الأماكن التى لم توجد بعد، وأن أتحاشى بعض الناس الذين تواجدوا فى هذه الأماكن بمحض

الصدفة، وأن ألتقى بالضرورة بالبعض الآخر، وإن كنت أشك أن أحدا على وجه الأرض مازال يذكرنى حتى أعلن له بكل فخر نتيجة عمليتى الجراحية الفاشلة.

حينئذ أسفرت تلك اللحظة عن شعور بالحنين إلى أمى فوجدت أنها قد ماتت ولم تعد تذكرنى، ولم أشك فى ذلك أبدا لأننى رأيتهم بعينى وهم يهيلون التراب على جسدها داخل حفرة فى الأرض، حين أدركت أنه لا معنى لنظرة تستجدى من الحبيب، أو لبضعة جنيهات مستحقة عند صاحب العمل.

وقادنى الحنين إلى قلوب أصدقاء قاسمونى يوما حلاوة المشاركة فيما جادت به أواصر الخيوط من مسرات ونعم، فوجدت أنهم تفرقوا بفعل قنابل الزمن الموقوتة التى أخذت بشتات خيوطهم ما أخذت من الأهل والأخوة الحاضرين الغائبين والرفاق الأحياء الأموات، وذكريات الزمن السعيد.. فصارت بعض القلوب رمادا وبعضها أحجارا صماء فقدت نبض الحياة.

هكذا صرت فى لحظة كائنا هلاميا قد انفصل بمعجزة عن مخلوقات هذا الكون المخيف، وما جاد علىّ شىء ببصيص من نور الفرحة بالتوحد مع إنسان أعرفه أو أحبه أو حتى أذكره.. حتى الحنين إلى الماضى فقد أثره وقطع دابره.

* * *

فتحت المظروف وقد ملّ انتظار أناملى أن تفتح بابه المغلق على وهم، مهما ظن كاتبه بأهمية ما احتواه من حروف متصلة ومنقطعة.

ڤيرينا نيلز...

من هى ڤيرينا هذه.. ولماذا يصلنى منها خطاب فى هذه اللحظات بصفة خاصة؟!.. أحقا إنها تلك الفتاة الفنلندية التى فرق بينى وبينها يوما بحر صغير؟!..

أتسأل عنى بعد مرور ستة عشر عاما على حديثنا التليفونى الحزين؟.. تعبر البحار والمحيطات والأزمنة والقارات بكلماتها الحلوة لتطمئن على صحتى وأولادى وحياتى ورؤيتى للمستقبل؟!

ياه.....!!

إن أخى الذى يعمل بالخارج لم يبعث إلى برسالة واحدة منذ عدة أعوام وهو الذى نزل معى إلى الدنيا من مكان واحد، لكن الخيط بيننا قطع وتبدد..

تحدثنى عن ابنتها وقد تخرجت فى الجامعة وعن زوجها وقد أحيل إلى التقاعد وعن عملها وقد تركته إلى عمل آخر وعن مدينتها وقد غادرتها إلى مدينة أخرى.

ياه.....!!

ظللت ألهث بعينى حتى نهاية السطر الأخير من رسالتها باحثا عن السبب الرئيسى الذى ربما يكون قد دعاها إلى الكتابة إلى، فلم أجد غير التحيات والأمنيات الطيبة..

ياه...!!

على الرغم من بعد الزمان.. وبعد المكان، فما زالت ڤيرينا تذكرنى!

* * *

«ما بصرى»

بكل ما أحمل من أثقال السنين جلست. اختارتنى أبعد مائدة فى أقصى ركن لأجلس إليها فاستجبت. سارعت إلى علبة سجائرى. وضعت سيجارة مصرية فى الفم العاجى الفرعونى الأنيق، واستبقيته فترة بين أسنانى بينما ألقى بنظرة فاحصة قلقة على رواد المكان، ثم أشعلت السيجارة الأولى.

خلف الزجاج كان الربيع يذيب الشتاء فيتسلل اللون الأخضر البهيج فى فضاء الغابة الواسع من بين طبقات الثلج التى تراكمت عبر شتاء قارس على فروع الأشجار

وأغصانها.. أما الشمس فقد طالت إقامتها الذهبية حتى الواحدة صباحا تبث سحرها الغامض فى سماء السويد وتعبث موسيقاها الدافئة فى حنان جميل بدقات القلوب.

أثار ظهورى المفاجئ بهذا المكان النائى فى أقصى شمال غربى العالم انتباه الحاضرين، فالجميع فى طور الشباب يتنفسون المرح ويرقصون الأمل ويغنون الحياة. تتساءل عيونهم فى دهشة ممزوجة بالفضول، وتطل ابتسامتهم فى توجس يميل إلى الترحيب.. من أنت أيها الرجل الأسمر الأنيق ذو الحلة الكلاسيكية وربطة العنق الشابة والابتسامة الخجلى، وماذا يعنى شعرك الفضى اللامع؟.. ما الذى جاء بك من عالمك البعيد إلينا ولماذا وهل تعرف كيف ستمضى الوقت بيننا أو كيف سيكون مصيرك لو كنت تروم البقاء؟!..

لو دخلت إحداهن صدرى لما ترددت أن تمضى بقية عمرها فى جنّاتى ووديانى وقمرى وأنهارى وعصافيرى وكلماتى وألحانى وألوانى وغنائى.

وها هى تجىء كما يجىء الحلم.. حورية تسعى إلى مائدتى تطلبنى على استحياء للرقص... تحف بها هالة من نور الخالق الأعظم.

أذوب فى سحر الجمال فأرقص وأتفانى وأفنى فى ملكوت سرمدى لا يفرق بين التقدم والتخلف، ولا بين الشباب والكهولة.. ولا بين الشمال والجنوب.

* * *

تعريف بالكاتب «سعيد سالم»

سعيد محمود سالم :

- من مواليد الإسكندرية ١٩٤٣م.
- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنون والآداب وعضو أتليه الفنانين والكتاب بالإسكندرية.
- عضو لجنة النصوص الدرامية بالإدارة المركزية لإذاعة وتليفزيون الإسكندرية.
- حاصل على ماجستير الهندسة الكيميائية من جامعة الإسكندرية، ١٩٦٨م.
- رئيس قطاع بشركة الورق الأهلية بالإسكندرية سابقا.
- عنوان المنزل: ٥ شارع على باشا ذو الفقار. شقة ١٠. مصطفى كامل/الإسكندرية.
- تليفون منزل: ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣). ٤٣٩٠٢٥٩/ ٠١٢

الروايات المنشورة:

- «جلامبو» جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٦م - «بوابة مورو» جماعة أدباء الإسكندرية - «عمالقة أكتوبر»، هيئة الكتاب، مصر ١٩٧٩م - «آلهة من طين» (طبعة أولى) هيئة الكتاب - مصر ١٩٨٥م/ (طبعة ثانية) دار الجيل، دمشق/سوريا ١٩٨٦ - «الشرخ» دار طلاس، دمشق/سوريا ١٩٨٨م - «الأزمنة» روايات الهلال ١٩٩٢م - «عاليها واطيها» (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر ١٩٩٢م - «الفلوس» دار المستقبل، مصر ١٩٩٣م - «عاليها أسفلها» (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥م - «الكيلو ١٠١ الوجه والقناع» طبعة خاصة ١٩٩٧م وطبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩م - حالة مستعصية «دار الهلال» نشرت عام ٢٠٠٢م - كف مريم «نشرت عن مطبوعات اتحاد الكتاب»

مجموعات قصصية منشوة:

- «قبلة الملكة» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٨٧م - «رجل مختلف» هيئة الكتاب، مصر ١٩٩٥م - «الموظفون» مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١م - «الجائزة» دار قيتباى للطباعة والنشر، مصر ١٩٩٤م.
- الممنوع والمسموح. مختارات فصول ٢٠٠٢م.

مجموعات قصصية تحت النشر:

- «أقاصيص من السويد - رحيق الروح - هوى الخمسين

- قانون الحب.

القصص القصيرة منشورة بالجرائد والمجلات الآتية:

- الأهرام - الأخبار - الجمهورية - المساء - أكتوبر - حواء - مايو - الهلال - الثقافة - الكتاب - إبداع - آخر ساعة - روز اليوسف - القصة - عالم القصة - أمواج - الإسكندرية - الأيام - البعث - تشرين - الموقف الأدبى - الثورة - الأسبوع الأدبى - الكتاب العربى - البيان - الأنباء - العربى - الفيصل - المجلة - الحرس الوطنى - الشرق الوسط - الدستور - الرأى - اليوم السابع - صباح الخير - الناشر - العربى - الكويت.

المسرح:

- الجبلاية (مسرحية كوميدية من ٣ فصول) - عاليها واطيها (مسرحية كوميدية من ٣ فصول) مسرح الطليعة.

نماذج من الدراما الإذاعية:

- حجر النار- العائد - سباق الوهم - بوابة مرور - زارع الأمل - رحلة

الصعود والهبوط ـ رجال من بحرى ـ الدكتور مخالف ـ أحلام الناس الطيبين ـ عيون الليل... وغيرها، وهى مسلسلات إذاعية شهرية فى ٣٠ حلقة بإذاعتى الإسكندرية والقاهرة، فضلاً عن العديد من السهرات الكوميدية وإعداد برنامج عالم القصة أسبوعيًا.

فى النقد الأدبى:

ـ مجموعة مقالات نقدية عن أعمال بعض الكتاب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

أهم الجوائز:

١ ـ الجائزة الأولى عن رواية «الأزمنة» فى مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية ١٩٩٠م.

٢ ـ جائزة الدولة التشجيعية فى القصة لعام ١٩٩٤م عن مجموعة (الموظفون) الصادرة عام ١٩٩١م عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق.

٣ ـ جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١م عن رواية «كف مريم».

٤ ـ رشح لجائزة التفوق.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. maktabetelosra.. org

E - mail : info @egyptianbook.org

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٠٥٣ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9994 - X